verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version





فَتحيَّة مَّنْ عَارِمُورَهُ سسة سس	

d by Tiff Co

(no stamps are applied by

ed

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطبعشة الأولمت ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م

جميسع جمشقوق الطتبع محسفوظة

ه دار الشرم قــــ

اللَّهُ الْمُرَاعِ ١٠١٤مَرُو مَوْاهِ الْمُمَاعِينَ مِنْ الْمُعَالِّينَ الْمُرِولَّةِ وَمَا الْمُعَالِّينَ الْمُوقِّةِ - اللَّهِ عَلَيْهِ الْمُعَالِّينَ الْمُوقِّةِ - اللَّهُ عَلَيْهِ الْمُعَالِّمِينَ اللَّهِ الْمُعَالِّمِينَ اللَّهِ الْمُعَالِّمِينَ اللَّهِ الْمُعَالِّمِينَ اللَّهِ الْمُعَالِّمِينَ اللَّهِ الْمُعَالِمُ اللَّهُ اللَّهُ الْمُعَالِّمُ اللَّهُ اللْمُعِلِّ اللْمُعِلِّ اللْمُلِيلِي الْمُعِلِّ اللْمُعِلِّ الْمُعِلِّ الْمُعِلِّ الْمُعِلِ

فتحية تختار مورق

ليلىالعقان

دارالشروقــــ

بست والله الرّم زالرَينيم

rred by TIII Combine - (no stamps are applied by registered version

فتحية تختبار موتبها

الكاتب الفلسطين . »
 رشاد أبو شاور ...

من خلف الزجاج كنت أراقبها .. كان الصبح يطل بوجهه باردًا لا يزال . والشمس تنزلق في السماء جدائل شقراء تغرس نفسها في قلب البحر لتستحم ، وتثير الدفء رويدًا .. رويدًا .. حتى يصل إليها .. تحس به فترتخى أعضاؤها التي تيبّست إثر ليلة باردة .

تبدأ حركتها .. أرجلها تتحرك بمشقة .. تتشابك معًا لحظة كأنها بذلك تشد أزر بعضها بعضًا ، وتتباعد لحظة أخرى .. تصير كأيد غرق تصرخ في آذان بحارة منهكين .. يرون ولا يلتفتون .. فتهدأ . تتجمع على نفسها بذبول يتحول شيئًا .. فشيئًا إلى استسلام ما تكاد تعتاد عليه حتى تعود إلى حركتها العصبية عاولة التخلص من المأزق الذي وضعتها فيه هزّة هوائية مفاجئة ، وتنتظر أن تأتى هزّة أخرى لتعيدها إلى وضعها الطبيعي ، مستلقية على ظهرها الأملس ، لا تكف عن المحاولة ، وأنا .. عينان من خلف الزجاج تراقبانها .. وضعها يؤلني .. وضع مشلول لا يدعها تتحرك خطوة واحدة ، وقد تبقي على حالها يؤلني .. وضع مشلول لا يدعها تتحرك خطوة واحدة ، وقد تبقي على حالها زمنًا بينا الأزمان تأتي .. وتسافر .. وتصافح أوجه النهارات المشرقة . من يرضي

بهذا الأسر؟؟ من منا لا يتوق إلى الحرية في كل لحظة ؟؟ فكيف لهذه البائسة أن تسترد حريتها التي افتقدتها ؟؟

أشفقت عليها ..

توسلت إليه وهو بجانبي يفرك كفيه الباردتين لتدفآ:

_ أرجوك .. اعدلها لترتاح .. أو اقتلها لتريحني ..

زفر :

_مالك ولها!! إنها مجرد خنفساء.

أبتلعت غضبيي ..هكذا إذن ينظر إلى تلك المعذبة ..

هو لا يدرى أنها بنظرى ليست خنفساء ، وبإحساسى الداخلى هى ليست حشرة .. إنها مخلوقة أخرى تحاول فى ذل ، وضعف لا تعترف بهها .. لكن وضعها يشهد على ذلك .. تتمنى لو تمتد يد ... أية يد ... قدم ... أية قدم ... لتحركها .. فتعتدل وينفك الأسر الذى جمدها طوال الليل .

صوتى المبحوح يكاد لا يصله .. كيف يدرى أننى أبتلع حزنى ؟ . هو فى النهاية رجل ككل الرجال ... لا يهمه أن تكون المرأة ــ الحشرة ــ مقلوبة .. أو معدولة ..

المهم أن تكون من وضع يناسب مزاجه .. ويريح رجولته .. ويرضى غروره .. هو يرى الحشرة كما هي «خنفساء » بينما أراها أنا ــ والسهم غارز في الصدر ــ أراها ... فتحية .

لكن فتحية التي تحب النوم .. والاستكانة في وضع واحد لا تريد أن تتحرك ... ظلت خاثرةً في فراشها .. سحبت غطاءها المنقش . وتأفّفت مرتين قبل أن تجيب :

_ لن أتحرك ... ولن أذهب ... إنني أكره وجهها .

كنت الصغيرة .. رفض لسانى الذى يخرسونه دائمًا أن يتعاطف مع فتحية .. أن يعلن هو الآخر عن كرهه لذلك الوجه .. أنا أيضًا لا أرغب في اللهاب لكنى ملزمة بأن أتخذ موقف الباقيات .

قالت فتحية كلاتها ... ثم أغمضت جفنيها لتعود بوهمها إلى الحلم الذى استفاقت منه ... وظننت أن أختى الكبرى قد استسلمت لموقف فتحية . لكنها عادت تهزها بعنف :

_ قومى ... سيأتى أبى بعد قليل وسنغادر إلى هناك . انتصبت فتحية فى فراشها ، ثار شررٌ فى عينيها رغم قبحه كان يعّبر عن موقف تمنيت لو أمارسه :

_ لن أذهب .. وأبى لن يجبرنى .. فلماذا أنت تُلحّين ؟؟ عادت تتكوم فى فراشها غاضبة ...

هنا .. جاء صوت أختى الثالثة تلاطف أختى الكبيرة :

_ دعيها .. لا تفرضي عليها ...

لكن هذا اللطف أثار أختى فصرخت:

لا .. لن أتركها ... لا يجب أن تنفرد بقرارها .. ولا برأيها .. لا يجب أن تنفصل عنا .. يجب أن تذهب .

دنت أختى الثالثة من فتحية هزتها محنان:

ــ فتحية ... يجب أن تذهبي معنا ..

أكره الذهاب .. وأكره أن أراها ...

_كلنا نكره أن نراها .. ولكن يجب أن نفعل .. علينا أن نواجه أمّنًا .. سنقول لها كوني حنونًا يا أمى ..

لنحبك .. ونأتيك راضيات .

هزئت فتحية بما سمعت وقالت:

- لا يجب محاورة الأم .. هي تفعل ما تريد وعلينا أن نطيع .

ـ الحوار قد يفيد يا فتحية . قومي معنا ... يجب أن تسمع أمنا صوتنا ..

يجب أن تعرف بأننا لا نرضى بهذه القسوة .

. -

ــ قومى يا فتحيّة ...

_ كلا .. لن أذهب .

ـ إذن .. تختارين التَّفرد برأيك .. حَسن .. سنتركك وسنذهب ..

وقالت أختى الكبرى :

نعم . . سنذهب . . . سنواجه المصير وحدنا . .

قالت فتحية :

ستكتم أصواتكن هى وزوجها .. وستفرقكن .

أخرستها أختى الكبيرة :

_ لن تستطيع .. سنكون صلبات .. وليس مثلك جبانة . ثم التفتت إلى وإلى أختى الثالثة :

ـ هيا . أعرف مسبقًا ما الذي ينتظرنا هناك .

* * *

هناك في بيت آخرينتظر وجه أمي المستطيل تتلاعب ضفيرتان ثخينتان على كتفيها المرمريّين يداعبها رجل آخر غير أبي .. وعلى صدرها تلتصق طفلة أخرى ترضع اللبن الذي حرمتني منه ... لو ذهبنا الآن ... وفتحت الباب ... فلن يهمها أن تحضن بالشوق وجوهنا .. لن يرقص قلبها فرحًا ... بل سترقص عيناها لتعد وجوهنا :

واحدة ...

اثنتان ...

ثلاثًا ...

وأين الرابعة ؟؟

* * *

ارتعشت ...

بكيت ... لمحت أختى الكبرى دموعى .. فبكت مشفقة على طفولتى .. نسير نحو باب الغرفة .. صوت فتحية المتكومة في الفراش يتبعنا :

ـ أرجوكن .. لو سألت عنى قُلنَ لها إنني مُت .

* * *

للموت صوت لا يسمعه إلا من يتمناه .. كان الموت بالنسبة لنا .. هو الحياة المريحة .. هذا التمزق بين الأطراف أرهق الطفولة : أجهض فرحها أكثر من مرة .. فتت في العظام نخاعها ... وأحترقت الأعصاب .. والشمس كانت حارقة ذلك اليوم ــ يوم الانفصال ــ كانت تعلن أن للموت أسبابًا وللحياة كذلك .. فهل يجب أن نعيشها مفتتين ؟؟ أو كاملى النمو والوعى ؟؟؟

* * *

وعى فتحية لم يكن يسبق وعينا .. كنا نتلمس الجرح .. نضغط عليه لأننا لا نريد لكميّة الألم أن تموت .. نريدها أن تنمو معنا ... تشحننا بالطاقة التى نستطيع معها أن نرفض تلك الأمومة الزائفة ونصرخُ يومًا في وجه أمى ...

لكتها اليوم ... تريد أن تنفصل ... أن تبقى وتزُجَّ بنا نحن الثلاث بأتون الغضب وكأننا نحن اللّواتى أردنا هذا الانفصال .. هناك .. ينتظرنا غضب أمى ، وشرّها الذى لن يراه أبى .. بل يحس به ... يقف أمامه مرغمًا .. سيقف عند رأس الشارع ليودّعنا .. ولا يجرؤ أن يقترب ... ولو فعل لخرجت إليه مهتاجة كها فعلت _ جدّتى _ من قبل .. يومها ضربت أبى أمام أعيننا .. وبكى .. ليس تألمًا بل حزنًا على نفسه .. وخجلاً منّا .. منذ دلك اليوم ابتعد .. يوقف سيارته بعيدًا .. ونترجل منها كها تترجل خيول تعلّمُ أنها ستباع .. أو ستسجن في اسطبل لا تفوح منه رائعة اله بفدر ما تفوح منه رائعة براكين الغضب .

يظل أبى واقفًا بحنانه بانتظار أن تقطع أرجلنا الطفلةُ المسافة .. وما أن نصل إلى الباب حتى نلوّح له ويلوح لنا مودعًا .. وفي كل مرة كان يخشى أن يكون

وداعة لنا نهائيًا .. لكنَّ المساء يأتى .. ونخرج خائبات نقطع نفس الشارع الضيق الذى جثناه والشمس تضىء ترابه .. نخرج منه والظلام دامسٌ يعلن عن ظلمة نفوسنا .. عن حزننا .. بؤسنا الذى عانيناه نهارًا كاملاً فى بيت أمى .. نقطع الشارع بأسرع ممّا دخلناه .. قلوبنا ترفرف كالعصافير .. نهتف :

نعود إليك يا أبى .. احملنا على جناح قلبك .. طِرْ بنا .. ونرجوك .. لا تَعُدُ بنا ثانية إلى هنا .

* * *

هنا .. تتكوم الخنفساء ...

وهناك فتحية كانت تتكوم ترفض أن تنزعها أختى من مكانها ... وفي داخلها تتمنى أختى كا نتمنى _ أن ننزرع في الفراش مثل فتحية ونعلن لأبي أننا جميعًا نرفض الذهاب .. لكنها بذلك الوعى الطفولي .. تدرك أنه لابد من الحركة .. لابد أن نواجه شرَّ أمى ... أن نعتاد عليه .. حتى نفهمه .. ونتعلم منه .. ثم نواجهها في نفس السلاح .. لا بأس لو تضرّر جسدنا الطرى .. لا بأس لو مزّقتنا قسوتها التي لا يقف في وجهها أى سد حتى الزوج الجديد .. يتفرج فقط .. فلا مهمة له سوى إغداق المال .. وإرضاء الجسد البض الذي تفوح رائحة عطره .. وشرّه .

* * *

ذلك الشركان ينتظرنا .. تمامًا كما ينتظر الليل هذه الحنفساء لتجمد أطرافها فيه .. بانتظار صبح جديد تتنفس فيه ... وفتحية كذلك .. تريد أن تتنفس اللحظة ولا يهمها أن تظل مكانها معطّلة .. لكنها لم تعطلنا .. حملنا أنفسنا نحن الثلاثة إلى سيارة أبى ... كان قلبنا الراجف لا يستقر . وحين لامست أقدامنا تراب الشارع ارتعدنا .. أحس أبى تلك الرعدة .. مَسَّ كتف أختى الكبيرة ..

_ إذا سألت أمك عن فتحية قولى لها إنها شربت اليوم _ ملح أمريكى _ أحسست بطعم الملح ذاك فى فى .. اهتاجت مصارينى قوقات كها تقوقئ اللحاجة ويتسارع ثمرها المدفون فى داخلها فتبيض ... أمسكت ببطنى أهرسه وأصرخ :

ـ آه .. بطنی .. بطنی ...

حضن أبي وجهى . يعلم ما الذي يصارع المصارين . الحوف .

ـ لا تخافي .. بجب ألا تخافي .. كوني شجاعة .

* * *

أيّ شجاعة !!!

همس لها:

حتى السماء كانت كدرة .. فاقدة لصفائها .. عابسة كأن شيئًا عزيزًا عليها في الأرض يموت .. وشهدت أتربة الشارع ضربات القلب السريع .. سجلت آلاف الحكايا التي شغلت الذهن ونحن نقطع الشارع .

ماكاد الباب يفتح .. حتى تناثرت نظرات أمى :

- _ أين أختكم ؟؟
 - _ لم تأت ...

قالتها أختى الكبيرة بذل . وانكسار شق قلبي . وهوت يد أمى البضّة على صدغها . . رن الكف على خدى .

- ـ وحدكن !! ... لماذا لم تأت معكن ؟؟
 - _ شربت ملح أمريكاني ...
 - وصرخت أمى :
- ـ حتى لو شربت كل ملح الأمريكان ... وسحبتنا إلى الداخل ... ارتدت عباءتها الحريرية .. نظرت إلينا :
 - _ سأذهب .. وأحضرها ... وسترى !! خرجت كالبقرة الهائجة ... وبقينا نرتعش .

* * *

الخنفساء ترتعش ... الظُهر يرمى غلالته الندية على الأرض ... وعلى البحر المخاهساء ترتعش ... والغيم يتسلل بين لحظة .. وأخرى .. إلى وجه الشمس يصفعها ماكادت .. حتى بكت ... قطرات المطر تساقطت متسابقة تعشق على الارتطام والموت على رأس الحشائش الذائبة وجدا .. سالت المياه .. وصلت إلى الحنفساء ..

- أحست برودة الماء .. انكمشت أكثر ... أكثر ...
- الوقت يمضى بطيئًا ... هي معطلة ترتعش .. ترتعش ..
 - تذكرني بذلك الارتعاش الذي عشناه.

* * *

شمس الظهيرة حارقة ... حوش البيت ـ بيت أمى ـ نظيف لامع .. تتوسطه شجرة خضراء كبيرة بنت أمى حولها حوضًا مربعًا من الطابوق ... وحرست ترابه بنباتات صغيرة تتحمل الجوع ... والعطش ... وأمى ذكية تعرف كيف تختار النباتات القنوعة التي لا تأكل من خير الشجرة الكبيرة .. ولا يرتفع رأسها ... وهي لا تسقى مساحات التراب كلها ... فقط ... تحت الجذع الكبير حتى لا تولد نباتات أخرى طفيلية تتسلق الجذع .. وتنخره .. إنها تكره أن ينافس الشجرة أى نبات قوى ... وما هذه الأشياء المزروعة إلا لتزين ما حول الشجرة .

فى الليوان الذى يرتفع ثلاث درجات عن أرض الحوش كنا نجلس متلاصقات فوق المطارح الوثيرة والمساند المطرزة .. نتلاصق رغم حرارة الظهيرة ... كانت أجسادنا ترتعد ... زوج أمى يتنقل من الشجرة إلى آخر الحوش حيث تُربَطُ عنزة وهو متوتر يحمل عصاه .. وكلما ازداد توتره رفع عصاه وهوى على ظهر العنزة .. فأمأت المسكينة دون حراك .. ونحن نشاهد المنظر نحس لمس العصا على ظهورنا .. القلق يفترسنا ... يفترس زوج أمى ... تأخرت ... ماذا تفعل هناك ؟؟ ماذا تكيل لأبى ؟؟ ولزوجته الطيبة ؟! و ... لفتحية ؟؟

* * *

اعترفت فتحية بعد ذلك .. أن الوقت الضائع الذى انتظرنا فيه كانت أمى تقضيه معها .. أجلستها في حضنها .. سكبت حنانًا وهميًا عليها ... قبلتها .. أخرجت لها من تحت العباءة كيسًا مليئًا بالحلوى .. بالبسكويت ... أعطتها لعبة

تمنت فتحية أن تملك مثلها .. فأغرتها الهدايا ... والأطايب .. سحرها الحنان المفاجئ ... ونحن نرتعد متلاصقات ... محرومات من كل ذلك .. خاتفات ... بينا فتحيّة تصدّق ! وتُخدع .. وتقوم مسرعة ترتدى ملابسها وترافق أمى ... وقالت لنا بعد ذلك إن أمى أكدت لها بأن كثيرًا من الحلوى والهدايا قد حصلنا عليه قبل أن تأتى لتأخذها .. ركضت فتحية .. وضعت يدها يكل ثقة بيد أمى ... وانظلقتا إلينا .

* * *

مرتعدات لا نزال كنا .. لكن وجه فتحية حين أقبل مستبشرًا ودّعتنا الرعدة .. تصورنا أن مولودًا جديدًا انبعث فى قلب أمى ليلم شملنا معًا .. فتقافزنا نستقبلها نشم الفرح الآتى معها .. نمزجه بفرحنا الذى انساب فجأة مع العرق المحبوس داخل مسامنا .. وحين توسطنا الحوش قريبًا من الشجرة .. صرخت أمى صرخة داوية جفلت لها قلوبنا

خلعت عباءتها .. ألقتها كمن يلقى النار واشتغلت . أخذت تنهال علينا ضربًا .. مزقت التصاقنا .. تفرق شملنا .. وقعنا .. اصطدمت جباهنا بحرارة الأرض فتكومنا ... اللعب ، الحلوى ، والهدايا تناثرت .. وزبد أمى يتناثر من فها مُرّا .. فتحية تحاول أن تمسك بقطعة من الحلوى .. لكن قدم أمى ترفسها .. فتستلقى على ظهرها .. وتحاول بحركات يديها .. وقدميها أن تمنع ضربات قدم أمى ... صراع لا أنساه .. كصراع تلك الحنفساء التي يعذبني وجودها .

كانت فتحية ملقاةً بانتظار أن تمتد لها يد واحدة منا . . فتعدلها . . لتقوم . .

وتحاول .. لكنناكنا نشحن أنفسنا بالقوة .. علينا أن نتكاتف .. لا وقت للتفكير . في فتحية التي اختارت أن تنفرد بقرارها ... وكأنها بذلك قد اختارت موتها تحت قدم أمى المسعورة .. تنشل حركتها .. ونحن بعيدات عن موطئ القدم لا نزال .. وعلينا أن نتصرف .

* * *

_ عليك أن تتصرف

همست له .. طبعت قبلة على وجنته التي دفئت ..

_ أرجوك .. اخرج .. وتصرف .

: لا الما

_ في هذا البرد الشديد؟

وانهمر توسّلی :

_ أرجوك .. إما أن تعدلها لترتاح ... أو ... اقتلها . وابتسم :

_ لم لا تنسى وجودها ؟؟

_ إنها أمامي .. تضايقني بمحاولاتها الفاشلة .

ربت على يدى:

_ ليست كل المحاولات فاشلة .. بعض المحاولات جيدة ... ومنتجة .. لنتركها ... قد تفلح في أن تنقذ نفسها .. من يدرى !!

تدفق دمع إلى حلقي . همست :

_ أنت لا تدرى ! حين تنقلب الحنفساء يصعب عليها أن تستعيد وضعها .. علمنا أن نساعدها .

يومها .. حاولنا أن نساعد فتحية التي كانت تنسحق على ظهرها تحت قدم أمي الثائرة .. حتى اقتربت من الشجّرة .. تمسكت بجذعها تتمنى لو تخلعه من مكانه .. وتحتمى في ترابه .. اهتزت الشجرة .. وتساقطت حبات « الكنّار » الحمراء المستوية .. لوكنا في بيت أبي نملك مثل تلك الشجرة لتراكضنا معه نجمع المخار .. نأكلها .. نتقاذف بالنواة بفرح .. ونشبع سعادة .. لكن فتحية أمامنا .. تتعذب ! لا طعم للثمر ... ولا للفرح .. حتى حين أقبل زوج أمي محسكًا بعصاه .. فتوسمنا أن يخضع جنونها تحت لسع العصا .. لكنه لم ينس في تلك اللحظة أن فتحية هي بذرة رجل آخر سبقه وفض بكارة المرأة التي هي ملكه الآن .. يناولها العصا .. تشد عليها بعنف .. تنهال على جسد فتحية المتكوم تحت الشجرة وهو يراقب منتصبًا بغرور!

* * *

انتصب أمامي ...

كنت أجلس على طرف السرير بانتظار أن يفعل شيئًا ...

يده امتدت لتفتح باب الشرفة .. فتحه .. هَب هواء مدهش صفع باب الغرفة فانغلق ... خرج ... مشى خطوة .. خطوتين ... خطوة أخرى ويكون قد وصل إلى الخنفساء .. هل سيعدلها ؟؟ هل سيقتلها ؟؟ ماذا سيفعل بالضبط ؟؟

قبل أن يخرج سألني :

ــ لو عدلتها .. أو قتلتها .. هل سترتاحين ؟؟

لم أشأ لذهني أن يسافر بي إلى أبعد من حدود الشرفة .. عدت أتابعه ..

رفع قلِمه . قبل أن يهوى عليها كنت أصرخ :

* * *

لم ننتظر . .

حين انهالت العصاعلى جسد فتحية رغم أن ذلك كان بسبب عنادها .. رفضنا أن يجرح الجسد أو يموت .. حاولنا أن نمد أيدينا إليها .. لكن الأيدى لم تصل .. كان يجب أن نفعل أكثر من امتداد اليد لكن ثورة أمى .. والشرر المتطاير .. أجفل الحركة منا .. كنا ثلاثة .. وفتحية واحدة ... لا نريد أن نموت معًا .. علينا أن نصمد .. أن نبق .. أن نبتعد ... لنقوى ونعود يومًا إلى أمنا أكثر صلابة في العود ، وفي الرأى ... وفي الفعل ... عندها لن تقاوم .. ولن تسلخ من جلودنا إصرارها ...

وابتعدنا ...

* * *

ابتعدت قدمه عن الحنفساء .. استدار نحوى ، كان أنفه قد احمر قليلاً من البرد الذي فاجأ وجهه ، تجمدت خطواته .. حضنته .. رجوته :

_ أرجوك .. لا تقتلها .

تناثرت ضحکته .. حضَننی .. _ أشهد أنى أحب هذا الرجل _ فهمنی .. قال :

ــ أعرف بماذا تفكرين .

أدخلني إلى الغرفة الدافئة حضن رأسي إلى صدره ، عابث شعرى المتطاير يُعدّل خصلاته :

ـ لا تحزنى .. ماكنتن مسئولات عن موت فتحية ... كانت الربيح العاصفة أقوى .

ـ لم أنس المنظر ... رغم أنني كبرت

ـ كبر الوعى ...

أمسكت بيده . . انزوى إصبعي داخل كفّه وبللت قميصه بنهر من الدموع .

* * *



ويبتى الصوت حيًّا

تقول الحكاية : إن ذلك الصوت الحزين الباكى كان ينساب عبر نسيم الليل فى مكان ما . ليطرق الآذان .. ينسكب فيها انسكاب الماء الحارق على الجسد .. يأتى موجعًا .. مترعا بالألم .. فيه مزيج من الشكوى .. والابتهال . ويُنْذِرُ بحدَّةٍ قد تتفجر يومًا فتصبح جنونًا يشق بكارة الحى الغافى دائمًا على حكايات صغيرة .

هذا الصوت موّال بدأ يُسمعُ في الليل ، يفوح صداه مثقلاً بروائح الألم . وفي النهار رغم الضوضاء والصخب ، يُحسُّهُ كل من يتحرك وكأنه داخل أذنه . يشقها . ينتزعه من أشغاله اليوميّة ، مابين اللحظة والأخرى ، كأنه يذكره بأن الصوت ما يزال .

أصبح هذا الموّال يقلق الصمت .. ويفجرّ التساؤلات وهو حزين شاك لا يفتأ يردّد :

«قسلبی علی طُویسر خَضَسرٌ شسسالوه من أیسسدی

ماشافت العين لا وما رضّعه دويدى (۱) عين عاها ملحها والسنار على خديدى أصرخ وجسمر في الحشا وينه شرى وليدى.»

* * *

يوم الجمعة ينفض شمل المصلين . يخرجون من المسجد كل يحمل مسبحته ، تسبقهم آيات الحمد والشكر ، يتوزعون بين الدكاكين القريبة ثم يتفرقون متوجهين كل إلى بيته . يمرون عبر الأزقة الطينية حيث تبدو النساء الكادحات عائدات من «ساحة الصفاة» (٢) بعد نهار شاق ، واحدة تحمل قفص الدجاج على رأسها . وتدب في سيرها ، وشجار الدجاجات متواصل في القفص ، وبعض الريش يتطاير حتى يلتصق «ببوشيتها» (٣) الكالحة . وأخرى تحمل سلة مهترئة فارغة إلا من بعض قشور بيض تكسر وتلوّن بلون الصفار الذي تجمّد عليه . وأم خضر ـ يعرفها أهل الحي ـ تدس بقشتها المليثة بحاجيات النسوة ، وغالبًا ما يكون حجم البقشة في طريق العودة أصغر بماكان عليه حين خرجت في الصباح . وبائعة الباجلاء نهف على وجهها وقد اختارت ظلا تحت الجدار . في الصباح . وبائعة الباجلاء نهف على وجهها وقد اختارت ظلا تحت الجدار . ولم يكن الطريق يخلو من همهات . . وسلامات . . وأحاديث عابرة بين النسوة . وقد توقف إحداهن أم خضر لتفك بقشتها وسط الشارع لتنفرج على ما لديها من حاجات .

ويتراكض الأطفال بين النسوة والرجال. يتطاير غبار الطريق تحت أقدامهم. ويشوطون الحجارة التي قد تنفلت وتسقط في قدر الباجلاء، فتثور بائعتة وتسب ولا من يسمع.

والبُنيات الصغيرات على رؤوسهن تتربع «مطابق» (١٠) اللبن وَهُنَّ قادمات من بيت ـ أو صُرَر الملابس الملونة لقادمات من بيت ـ أم عُبيدى ــ الحياطة ، وقد يتلاسَنَّ أحيانًا مع بعض الصبية المهرجين .

推 棒 特

تصب هذه الأفواج في الشارع الطويل ، ومنه تتوزع عبر الطرقات الدافئة الضيقة العابقة بروائح الطعام .. والكاز .. وبخار التراب .

وكل من يمر عبر تلك الطرقات كان الصوت يتهادى إليه .. وكثيرا ما شوهد الناس وهم يرفعون رؤوسهم باحثين عن المصدر الذى يصل منه إلى آذانهم ونوافذ بيوتهم ، فتعلو وجوهم دهشة وحيرة ! بينا السؤال يتوالى مع توالى الليالى والأيام : مَنْ صاحبة ذلك الصوت المتفجر ألمًا بكلات تؤكد نواح أم فقدت طفلها ؟؟

* * *

لم يكن أحد ليعترف من الرجال حين يتحلقون في المسجد بعد صلاة العشاء بأن لهذا الصوت وجودًا . كأن كل واحد منهم يخشى أن تُلصَق به تهمة إيواء هذا إلنواح ، لكن الفضول النسوّى كان يوقف سير الأقدام التي كثيرًا ما تَحَارُ أين تستقر ! فمن كل فراغ يأتي الصوت ، ومن كل نافذة بخرج .. ومن ما تحارُ أين تستقر ! فمن كل فراغ يأتي الصوت ، ومن كل نافذة بخرج .. ومن

كل حجر ينطبق ، حتى أن بعضهن أخذ يُشيع أن «شيطانًا ما» يفعل هذا ... وبعضهن يؤكد وجود امرأة نائحة يستمعن إلى غنائها حتى تبتلّ بوشيّاتهن بقطرات الدمع .

تقول أم خضر وهي تفك بقشتها في حوش أحد البيوت:

ـ كأن الصوت يأتي من بيت «فلان»

فتضرب أم سليان على صدرها الذى يكاد قفصه أن يشق الثوب:

ـ ويه ! عنده زوجتان أراهما كل جمعة في السوق .

وتحرك أم خضر أناملها بشكل مروحة ثم تستغفر ربها ثلاثًا وتهمس:

_ وعنده بنت عانس! الله أعلم.

فتصفق أم سليان كفًا بكف:

لا حول ولا قوة إلا بالله .. ولكن يا أم خضر هذه واحدة تنعى ولدها .
 تَنْفُضُ أم خضر عباءتها وتهب واقفة :

_ الشكوى لله . والله لا ندرى ما هي «السالفة» (القصة) .

وتخرج .. تترك السؤال مطروحًا : تُرى ! هلى يأتى الصوت من بيت فلان حقا ؟؟ وتكاد المرأة تؤكد كلام أم خضر لتريح خاطرها .. لكن «عَبدة» (٥) «أبو وزّان» تهز قناعتها غير الكاملة حين تجيء في المساء لتوصل غرضًا ! جلست وتجشأت فانتثرت في المكان راضة فجل . فهفّت أم سليان عهفتها وهي تزم شفتها قرفًا :

_ الله هداك يا «غرّوبة» كأنك أكلت عشر شدات من الفجل.

- والله صحيح يا أم سلمان .. رَعَيْتُ اليوم بالفجل دون أن أدرى .. وأنا فى طريقى ظهرًا من الدكان .. جاءنى ذلك الصوت الشاكى .. تعوذت من الشيطان لأكمل طريقى ، لكن الشيطان جبّار ، وسوس لى ، من هنا الصوت ، فأمشى ، لكنه غاب حين وصلت وكأنه يأتى من الخلف ويهمس لى : من هنا .. فأتبعه .. وأحس بالجوع فآكل من الفجل . ظلت ساعة وأكثر حتى كاد يؤذن العصر ولا فائدة ، الصوت يهرب إن لجقته .. ويلحقنى إن تركته .. و ... قاطعتها أم سلمان :

_ ما الذي يجبرك؟ غيرك فعل ما فعلت .. ولا أحد حتى الآن استطاع أن يعرف صاحبة الصوت أو مصدره .

فتفاخرت «غرّوبة» بصوت أَبّح:

_ ويه .. يرحم والديك ، بدأ الناس يتهامسون . وتفجر فضول أم سليمان بفرح :

_ بماذا ؟ من تهامس ؟؟

تهربت غروبة من ذكر أى اسم :

_ الناس .. أقصد بعضهم .. وحتى عمى «أبو وزّان» سمعته يهمس أن الصوت يأتي من بيت «أبو شهاب» .

ثم نفضت ثوبها : والله أعلم .

قالت أم سلمان:

_ تقولين «أبو وزّان» قال هذا ؟

وانتثر رعبٌ على وجه غرّوبة :

الله نخلیك یا أم سلیمان . لا تقولی أننی تفوّهت بهذا . الله أعلم . قلت احمتی حین لا متنی علی تأخری ونقص الفجل الذی معی أننی كنت أدور وأبحث عن مصدر الصوت ، وأننی فعلاً لم أتعرف أو أقنع بمكان . .

_ وماذا قالت ؟

_ سحبت الفجل من يدى بغيظ. وعند الغداء سمعتها تحكى قصتى «لأبو وزّان»، وهنا همس بما قلتهُ لك.

وعدتها أم سليان بألا تنطق بما سمعت ، وحين تركت غروبة حوش الدار ، كانت أم سليان تقف وفي خيالها خواطر ، وصور ، وتهيؤات ، ثم مشت وهي تهمس لنفسها : الشكوى لله الشكوى لله .. سأخبر «أبو سليان» بما قاله «أبو وزّان» .

* * *

صارت الأغنية تتردد على أفواه النسوة وهن يخبزن خبز الرقاق . . أو يغسلن الثياب ، حتى وهن يفركن القدور السوداء بالرمل . وانتقلت العدوى إلى الأطفال صبية وبنات ، فأخذن يرددنها ليل نهار رغم صراخ آبائهن فى وجوههن ووجوه أمهاتهن اللواتى يرددن الأغنية .

وأصبح الأمر اعتياديًا .. المارّون يسمعون ، يبحثون ، ثم يعجزون . والنسوة بفضولهن يخترعن كل يوم حكاية ، والرجال يستغفرون ويهربون من مناقشة الموضوع . حتى كاد الناس بعد ذلك أن يتجاهلوا الأمر .. أو ينسوه تمامًا .

ذات صباح تعكّرت السماء بالغبار الأحمر . كان «ناصر» يمسك بيد أخته «وضحة» يقطعان الطريق من البيت إلى المدرسة . يوصلها أولاً ثم يكمل طريقه إلى مدرسته ليعود بعد الانصراف ثانية ، فيجدها تنتظره حاملة دفاترها ، وباليد الأخرى عصا من الحلاوة تمصّها بتلذذ ، تعطى له نصفها ما أن يصل .

فى ذلك الصباح تأخرا فى النوم .. لذا كان يجرّها من يدها راكضًا .

صرخت :

_ لماذا تركض ؟؟

ـ لقد تأخرنا ..

وتوسلت بصوت طفولى:

لا تذهب من طريق «الحوطة» .. أريد أن أمرّ على الدكان .

كررت وهو يجرّها:

ـ لقد تأخرنا . اشترى الحلوى من قرب المدرسة . وبإصرار قالت :

_ لاأريد .. لاأريد ..

صفعها صفعة خفيفة على وجهها .. وشدّها إلى الحوطة ، يقطعانها إلى الشارع الآخر.

كان ملح السماء الأحمر يزداد .. والهواء يتلاعب بأوراق الأكياس وبعض القاذورات ، والحوطة خالية تمامًا إلا من عنزة تُركت لترعى بعض الورق والفضلات .. وهما يركضان رغم الحصى والعلب الفارغة . وفجأة هوت أخته منكفئة وصرخت :

ـ إنك تسحبني .

ــ لقد تأخرنا . هيّا . . قومي .

وانحنى ليرفعها عن الأرض ، فاصطدمت عيناه بكومة من التراب المبلل . . وقد تبعثر بفعل سقوط أخته عليه رفعها . . نحّاها جانبًا ، نظر إليها وتساءل :

_ ما هذا؟

فصرخت فيه كأنها تود الانتقام منه:

_ هيا .. لقد تأخرنا .

وضع سبابته على شفتيه :

ـ هس . لنرّ ما هذا أولاً .

فجأة عوى كلب ، فارتجفت الصغيرة ، لكنه هدّأها .. وجلس بقربها .. وأخذا يتأملان الكومة الرطبة .. وتساءلت العيون الأربع .. تباعدت .. وتلاصقت .. ثم عادت تعانق كومة التراب .

مدّ يده .. أخذ ينبش الكومة فصاحت أخته بصوت مرتجف:

ـــ لا .. لا يا ناصر .. يمكن أن تكون حيّة . هدأها :

_ الحية لا تدفن نفسها هكذا . ويده لا تزال تنبش . وتنبش . حتى بدأت تغوص بعد ذلك . وإذ اصطدمت بشيء ، التفت إلى أخته :

_ وجدته.

شهقت:

- ـ ما هو ؟؟
 - **-** کنز!
- فرحت :
- ـ كنز؟ ذهب يعنى !
- قال وهو يكمل رفع التراب :
- خهب .. فلوس . المهم وجدنا كنزا . وحفر .. ثم مدكلتا يديه الصغيرتين ،
 وانتشل صرة من القاش الأبيض . نفض عنها التراب ووضعها بينه وبين
 أخته :
 - ـ هيّا .. فكي هذه الحيوط .

وانفرجت الصّرة عن مشهد جعلها يقفزان صارخين بصوت واحد : يُمّه .. يُمّه ..

تثلجت أطرافها لبرهة .. والكلب الذى كان يعوى فى آخر الحوطة اقترب .. وصلّب أذنين جرباوين ولسانه يلهث ، ثم اقترب . وأخذ يشم الصّرة ويرفع رأسه نحوهما .. ثم يدور .. ويدور بينما عيناهما تتقاذفان الحنوف والسؤال . نطق أخرًا بكلمات عوجاء :

_ هذا ولد.

هزّت رأسها بإيجاب ، ولمح دمعة على خدّها تلوّنت بلون «الطوز» (٦) الأحمر .

طرد الكلب بحركة من يده .. ولمّا لم يتحرك أمسك بعلبة فارغة ، قذفه بها .. ثم بعصا . لحقه حتى ابتعد قليلاً ، وعاد إلى أخته التى مدت أصابعها تتلمّس جسد الطفل الطرى . وحين دنا منها سحبت يدها خجلى . فأخذ

بدوره يتفحص الطفل. يشد ساقيه ويديه.. وقال:

هذا ولد ميّت .. ولكن !

وبكت :

ـ واى .. أنا خائفة .. هنا يدفنون الأموات ؟؟ لامس كفها الصغير ليزيل بعض هلعها :

ـ لا .. يدفنونهم في المقبرة .

وأشارت بإصبعها :

_ وهذا ؟؟

_ لا أدرى.

ثم انكفأ يلف الطفل بقاشه ، وغيره من الصبيّة والبنات بدأوا يهرجون عبر باب الحوطة . يقتربون .. يقتربون . وقبل أن يكمل وضع الطفل فى حفرته كانوا يتحلقون حوله متسائلين .. لكنه صرخ فيهم :

_ ابتعدوا .. لا عليكم في هذا الأمر .

وثار صراخ الأولاد .. ثم امتدت يد أحدهم لتشد «ناصر» من فوق التراب .. وسَحب الصرة البيضاء وفتحها أمام أعين الجاعة التي ماكادت ترى المشهد حتى تطايرت رعبًا . وتراكضوا إلى بيوتهم ليعلنوا الخبر . فَشدّ على يد أخته .. وألوى راكضًا هو الآخر ناسيًا المدرسة التي خرج إليها مسرعًا هذا الصباح .

环 称 称

سرى الحنبر سريان النار في الهشيم . وخلال وقت قليل كانت الحوطة تعج

بعشرات الرجال والنسوة وبعض الصبيّة الحفاة في دشاديش النوم المقلّمة القصيرة يفركون أعينهم التي لم تشبع من النوم.

أخذ بعض الرجال يهش الجموع ، لكن الجموع تبتعد من جهة لتزدحم من جهة أخرى . وبدأ شجار بعض الصبيّة ، وكأن ثأرًا قديمًا قد استفاق فجأة بينهم . بينها تقرص أفخاذهم وزنودهم أصابع الأمهات اللواتي يردن أن يسمعن كل كلمة ينطق بها الرجال المتحلقون حول جثة الطفل التي أصبحت مشاعًا لكل الأعين .

قال أحدهم:

ـ نواريها التراب.

اعترض آخر :

_ هذه ليست مقبرة .

تنهد ثالث وتعوذ:

_ من الذي فعل هذه الفعلة ؟

صرخ صوت:

_ أقسم أنه «ابن حرام» أرادوا التخلص منه!

هدّاه رجل:

ــ سَمٌّ بالرحمٰن . لا تُقْسِمْ قبل أن تعرف الحقيقة . لكنه احتدٌ أكثر :

_ حقيقة .. أبة حقيقة ؟

وأشار بيده إلى الجثة وأكمل:

ـ الحقيقة أمامك .. ولست أعمى .. جاهل ميّت مدفون في حوطة .

عاد يهدئه:

_ صحيح .. صحيح .. لكن يُمكن ! ا

ـ لا يمكن .. ولا يصير .. هذه فضيحة تتوارى وتنكشف .

كان الغبار الأحمر قد تزايد ، والهواء يرتفع ويهبط فيحمل معه الورق .. وبقايا القامات . حتى عباءات النسوة بدأت تتطاير ، ولمح أحدهم ساق امرأة فاقترب منها :

ــ أنت . . خذى ولدك وارجعي إلى بيتك . .

ولم ينته حتى كان لسانها ينفلت بالصراخ:

- ألم تجد غيرى ؟ كل هؤلاء - وأشارت بشكل نصف دائرة - كلهن ولا تجد غيرى . . أم أننى واحدة من أهل بيتك لتتحكم بى ؟ حمل الرجل نفسه وابتعد بهز رأسه .

أخيرًا جاء صوت أبو يوسف .. الرجل التقي :

ـ يا جماعة الحنير! صلوا على النبى . نحمل الطفل إلى «اللختر» (٧) أو إلى «الأمن العام» ونسلّمه هناك والحكومة تتصرف .

وتدخل أحدهم:

ـ لماذا لا ندفنه يا «أبو يوسف» وأحدنا يخبر الحكومة . حرام أن نحمل جثة الطفل بهذا الشكل. وافقت عدة أصوات :

ــ هذا أفضل .. هذا رأى معقول .

وتلفت «أبو يوسف» يستعرض الجموع .. والصغار وأشار :

- وهؤلاء الناس! هل سيتركون الأمر بسلام؟

- صدقت یا «أبو یوسف» صدقت . صدقت . همهات انطلقت ، وکل

وجه يستعرض الوجوه الأخرى ، وأبو يوسف يقترح :

_ هل يتكفّل أحدكم بالذهاب إلى الحكومة .. وآخر بحراسة الجثة ؟ أما أنتم

وشق طريقه بين الناس:

_ أرجوكم .. كل إلى بيته .

وحين لمح وجوه بعض الأولاد الكبار صرخ فيهم:

_ وأنتم .. لماذا لم تذهبوا إلى مدارسكم ؟

تراكض بعضهم بينها ردد باقون:

ـ الدنيا «طوز» عمى أبو يوسف.

هشّهم:

_ زين . . زين . . يا الله . . كل واحد على بيته .

تفرق الجمع .. بقى اثنان قرب الجثة التى واروها التراب ، وانسحب ثلاثة في طريقهم إلى التبليغ .

لم تتفرق النسوة .. سرنَ جماعات .. وأحاديثهن تتطاير مع تطاير الغبار والقاذورات .. وكل واحدة تتساءل :

هل یکون الطفل ابن فلانة .. أو فلانة .. أو فلانة
 فنى الحى المجاور نساء معروفات ! لِمَ لا تكون إحداهن قد أرادت الحلاص
 من الطفل ؟ وتساءلت أخرى :

ــ ولكن ! لماذا في الحوطة .. لماذا لم تدفنه في حوش بيتها ؟

_ شىء عجيب . هذه حكاية لم تخطر على البال ! ولكنى أؤكد أنه ابن حرام كما قالوا ، وإلاّ لما تخلصوا منه .

- _ كأنك ترين ابن حرام لأول مرة ! كم من طفل وجدوه مع «مشيمته» في «البلدية» بين الأوساخ !
 - _ صحيح .. لكن هذا ميت .. وربما مختوق !
 - _ الحنوف .. الحنوف يا أم حمد .. أو ..

التفتت إحداهن إليها:

_ أو ماذا ؟

_ الله أعلم .. ربما يكون ابن عائلة !!

وضعت النسوة أكفهن مفروشات فوق رؤوسهن وردّدن :

_ الله اكبر.. الله أكبر.

وشهقت واحدة بصوت عال:

- _ يا جاعة .. تذكرت .. أينكُنّ عن الصوت ؟؟
 - _ أي صوت ؟ ماذا تقولين ؟

انطلقت التساؤلات من كل الألسنة بفضول ، وكأنها تهزأ من جهلهن .

قالت المرأة:

_ أىُ صوت ؟؟ كأنكن نسيتن !

وأخذت تردد :

«قلبى على طوير خضر.. شالوه من إيدى... الخ»

وقاطعتها إحداهن محتدة :

ـ بَسُ .. هذا غباء .. الصوت الذي نسمعه صار له شهور ..

- _ ما المانع أن تكون أم الطفل؟
- عادتُ الأولى تدافع عن وجهة نظرها بذكاء تفخر به :
- _ لقد رأيتن الطفل: هذا مدفون جديد .. وذلك الصوت قديم .. فهل تبقى جثة الطفل سليمة هكذا ؟؟
 - ساد صمت .. كأن كل واحدة تلعن غباءها .. وتهامس :
 - صدقت . صدقت .
 - عادت الأولى وكأنها تريد أن تعيد ثقتهن بأنفسهن :
- _ كلامكن عن الصوت صحيح .. والله أعلم .. ربما أخذوا من صاحبته الطفل عنوة .. ودفنوه لكنه على أية حال ليس هذا الطفل .. هذا له أم أخرى أرادت التخلص منه .. ومن يدرى ربما أهلها ... ثم ضحكت :
- _ ومن يدرى أيضًا .. ربما غدًا نسمع أغنية أخرى . قالت إحداهن وبوشيتها تلتصق بفمها :
- _ إن كانت له أم مغدورة .. فما أن تسمع حتى تهرع إلى المكان .. أما إن ... وأكملت أخرى :
 - _ إن كانت هي وأهلها الذين تخلصوا منه فلن تتحرك.
 - _ غدًا نسمع الأخبار.
 - قالت واحدة بحسرة:
- _ من أين يا حسرة ! الحكومة ستأخذه وتدفنه وتضيع قصته كما ضاعت قصص أخرى قبله .

ولم يكن مقدرًا أن تنام هذه الحكاية كما نامت قبلها حكايات .. فحين كان المارّة يسمعون بكاء طفل في أماكن البلدية المنتشرة في الأحياء . أو عند أبواب المساجد .. أو في السوق يجدون طفلا في «زبيل» (^) تثور الأقاويل .. تلمع الشائعات ثم تصدأ بعد ذلك وينام عليها الغبار والنسيان .

* * *

استيقظت الآذان وصدى الصوت النائح يشق المسافات ، يعبر إلى الوجدان ، يهرّ النوم الراقد في الأجفان .. ومنذ كبرّ المؤذن داعيًا لصّلاة الفجر كانت الأغنية الحزينة تنطلق كصلاة تشق رقعة السماء التي هدأ نزيفها الأحمر . لم يعد الصوت وهمًا أجرد .. ولم تعد الأغنية مجرد صدى .. إنها حقيقة تؤكد نفسها اليوم ، وتمرّق شرايين الصّباح المتنفس بعد ليلة طال فيها السهر .. وكثرت الأقاويل .. والتخمينات .

نفض الناس عنهم ذَبِّقَ الأجساد ، والرجال في طريقهم إلى المسجد تغيرت خطوتهم .. ساروا باتجاه الصوت الذي تأكدوا أنه حيّ يصرخ من حولهم .. ويقترب كلما اقتربوا .. وسحبت النسوة عباءاتهن وخرجن ، يلتقي فوج بآخر ، يلحق بهن الأطفال والصبية .. والرضّع على الأذرع لم يغتسلوا من بولهم بعد .. وربما لم يرضعوا . الصباح يحمل الرّنة الحزينة .. لا يسمع سواها ، وسوى صوت الأقدام .. يحذف أحدها علبة مبعوجة فتثق ثم تخرس .. وقدم يحذف عصا فتطير مستغيثة .. وخبطت قدم في «براز» أحد الصبيّة .. فسحق نعل حذاته على التراب الحشن ، وفاحت رائحته القديمة ، فابتعد الناس مهرولين

كمن تلحقهم عصا إبليس .. والصوت يقترب .. ويقترب كلما دنوا من الحوطة .

وعند بابها توقف الجمع . . كان الصوت راقدًا فيها . عاريًا هذه المرة .. يؤكد حقيقته بنواح مذبوح .

اندفع الفوج .. وعلى التراب الرطب .. كان جسدها مُلقى .. عباءتها تنسدل عن نصفها العلوى فتبدو جديلتان فاحمتان تمتزجان بالتراب .. وصوتها يمتزج بدمعه ، جبّارًا كأنه يعنف هذا العالم الراقد تحت جذور الحوف وأتربة النهارات المرّة المتعاقبة .

لم تجرؤ امرأة من قبل أن تعلن عن نفسها ، واليوم ! ها هي قد انكبت على القبر الفارغ ! تنبشه بأظافرها .. مرّقت رمله .. وطحنت حصاه ، وحين لم تجده فاح عواؤها البائس ..

ورددت الأغنية التي ربما كانت لأم مفجوعة قبلها .. أو لأمهات توأد قلوبهن في الليل تحت تراب الأرصفة الشرهة للحم الخطايا الدائمة .

انكفأ رجلان .. رفع أحدهما العباءة ليستر وجهها .. وأمسك الآخر بذراعيها ليقتلعها من على التراب . لكنها التصقت بالأرض التصاقًا يتحدّى الأذرع القوية الممتدة .. غرست كفيها في القبر المفتوح وصرخت :

_ دعونی . . أموت . لقد قتلوه .

لم يكن همّ الرجال مُسلطًا على معرفة المرأة ، فهم حتى لوشاهدوا وجهها تحت أشعة الشمس المشرقة لما عرفوها .. لكن فضول النساءكان يغلى ..كل تريد أن تلمح ولو طرفًا ، عينًا .. أو شفة أو خدًا .. لعلهن يحدسن من تكون .

لكنها لا ترفع وجهًا .. ولا تشعر بوجود من حولها .. لا تحس بالفضول القاتل المطل من العيون ، لاترى حولها إلا أشباحًا لأيد مزقت البارحة قلبها .. واختطفت الطفل من بين فخذين استسلما للعشق ذات ليلة .

* * *

تجذّرت المرأة فى الأرض .. تسكب عصارة الروح الجريحة .. وتنبع آهاتها كما تنبع نافورة دم من أرض داستها أقدام دخيلة نجسة .. وصوتها يعلو .. وينخفض مبللاً بالأسى .. ممزوجًا بنغات كأنها حدّ السيف يذبح سامعيه ..

«أصرخ وجمر في الحشا.. همنذا ثمرى ولمسمدى همذا... ثمرى ولمسدى.»

وتهطل دموع الرجال الذين يحاولون انتشالها .. لكن الجسد ثقيل .. كأن الاف الرمال والأثربة والحصى دفنت فيه .

* * *

كان النهار قد شعشع .. جدائل باهتة بلون الوجوه .. ونواح النسوة .. يتقاطر .. كل تقف في مكانها تغطى صفحة الوجه ببوشية سوداء رطبة . لم تعد واحدة تبحث بين الفوج عن شبر تطل منه لتعرف وجه المرأة . كان الحزن قد تدفق إلى صدورهن . فمات فيها الفضول .. ماذا يهم أن يُعرف وجه المرأة ؟كان

الغضب يلازم أنّات البكاء .. يودّ لو يصرخ فى وجوه الرجال المتحلقين ... أن يشير بالأصابع ! أن ينفلت كما تنفلت أنّات المرأة ! وكما انفلتت جدائلها السوداء تتعفّر بتراب الأرض .. بملحها الذى رُشّ على جثة الطفل ... وكانت العيون تتساءل : أين ذلك الرجل الذى شاركها الفعل وزرع البذرة ؟؟ لماذا لا يأتى كما جاءت !! ولا يبكى .. كما تبكى .. ويتمزق .. كما تتمزق جوارحها ؟؟ لكن الغضب لا يخرج .. والصرخة حبيسة تخشى الانفلات لترتاح من ثقل سنوات الصمت .

حاولت إحداهن أن تشق طريقها .. وتقترب حاملة طفلها الرضيع .. ودّت لو تمدّ يدها به إليها .. وتستحلفها بالله :

_ خذی , . هذا هو ابنك . . لم يمت .

لكن الخوف المنسوج كخيوط العنكبوت أوقف المحاولة .. وكذلك الصرخة الداوية التي ارتعد لها الفوج كله .. واستفاقت منه عيون الرضّع النائمة . صرخة المرأة مرّقت وجه الفجر المتفتّح .. ثم ارتدت سكينٌ شقت الصدر الذي تمرّق ثوبه .. وانكفأت بلا حراك .

* * *

حين تفرقت الجموع تسحب خطاها بحزن تحمل عثار طريقها الذى ما استطاعت جدائل الشمس أن تنبره .. كانت تتهادى إلى الأسماع تلك الأغنية ! حزينة .. لا تزال .. لكنها شديدة الوقع .. تخترق الآذان وكأنها تطرقها بآلاف المطارق .. توقظ فيها شيئًا .. تذكر أن الصوت حيّ .. وأنه .. سيبق .

وتقول الحكاية إنهم حين جاءوا ليحملوا جثة المرأة .. وجدوا حليب ثديبها المكتنزين يصُب في القبر .. ويروى النراب .

رف																							-				_			-							_					
هذا	(على	٠,	ين	قت	ئىر	منا	١	A	ينا	ع	•	ت	٠	بة		لو	و		l	فه	عوا	ű	ر	_	یا		j	قع	ė	ι	Α,	عد	_	,			ä	ناي	<	1	۱.
• • •	٠.	٠.	٠.			• •			• •			٠.			٠.		,	:	ل	قو	נ	U	لةٍ	}	ڼ	اين	<	>		ت	ومأ	را	J	ل	حا	يا-	Ļ	1	L	فق	5	
•••	••	• •	••	• •	•	• •	• •		• •	١.	•	٠.	• •	• •		•	•	٠.	• •	٠.	٠.	• (•	• •			•	•				•	• •		•		•		•	•		
•••	• •	• •	• •	• •	•	• •	• •	•	• •	• •	•	• •	•	• •		•	• •	• •	• •	٠.	• •	• •	•	• •		• •	• •	•	• •	•		•		•	•	٠.	•		•	•	•	

. إشارات:

تصغير لكلمة _ ديد _ وتعني ثدى . ا ــ دويدي ساحة رئيسية في مدينة الكويت . ٢ _ ساحة الصفاة غطاء الوجه للنساء ولونه أسود خفيف. ٣ _ يوشيّة جمع _ مُطْبَق _ وهو وعاء خاص لوضع اللبن. **۽ _ مطابق** غرّوبة اسمها . خادمة مملوكة . م_ «عبدة» الغبار الأحمر الذي يأتي في الصيف. ٦ _ الطوز الطبيب . ٧ ـــ الدختر قَفَّة . ۸ ــ زبیل

ينفصل الوطن .. تنفصل الطريق

للجرس نغات خاصة كأنها رقصة سجينة تنطلق ، ونهاية اليوم الدراسيّ تعنى الحرية لمساجين الفصول الدراسية الساخنة ، ويحلو الهرب بعد يوم رطب .. بدبق تتلاصق فيه الثياب بالجسد .

فى دقائق انفلتت الطالبات من الصفوف كما تنفلت الخيل المنتظرة إشارة السباق . أصوات أقدامهن المتراكضة على الأرض تثير أنغامًا حاسيّة تختلط مع الأنغام المنبعثة من السيارات المنتظرة . وتنسجم مع اللحن الذى ينبعث من راديو الباص .

تقافزت الطالبات إلى جوفه بعضهن ضاحكات تتناثر خصلات شعورهن على جباههن الرطبة .. وبعضهن يبدو أثر دموع فى عيونهن . ذلك يعنى أن نتيجة اليوم الدراسي لم تكن مرضية .

أسراب .. أسراب .. تدلف إلى بطنه حتى كاد يمتلىء إلى عُنقه . صارت الحيول المنفلتة سردينا يتلاصق رغم الرطوبة ، وانبعثت رائحة العرق ، ورائحة الجوارب ، وأحذية الألعاب المهترئة .

_ أَف.

زفر السائق . سحب منديله وغطى به أنفه ينتظر اكتمال العدد . بينما صراخ الطالبات وأحاديثهن تضيع مع الأنغام التي كانت مسموعة من شبابيك الباص قبل امتلائه .

صاح السائق مناديًا بعض الطالبات المتجمعات حول بائع «الآيس كريم» فَهَرَعْنَ إلى الباص الذي ماكاد يبتلع أجسادهن حتى أُغلق بابه .. وحرك السائق المفتاح . وقبل أن يتحرك .. امتطت سيارة فارهة أمامهُ . وسدت عليه الطريق .

ضغط على البوق .. مرة .. وثانية .. لم يستجب سائق السيارة الفارهة .. ضغط مرة ثانية .. كأنه يحذّر من غضبه لكن السائق الآخر لم يتزحزح .

* * *

الحر شديد .. الباص يكاد يستفرغ ، الرطوبة .. أنفاس الفتيات .. صراخ بعضهن يراجعن مادة الجغرافيا التي كان يكرهها مذكان تلميذًا . التفت إليهن وقد بدأ يفقد أعصابه :

_ اسكتن يا بنات .. ارحَمُنني .

تضاحكت الطالبات ، تغامزن عليه .. وعدن إلى ثرثرتهن ولكن بصوت أقل حدّة .

يده على البوق ثانية .. ثلاث ضغطات .. طوط .. طوط طوط .. لكن السائق كاللوح لا يتحرك .. ومن نافذة السيارة الحلفية أطل وجه امرأة هندية ملأ الشيب مفرقها ومن عينها أطلت نظرة ضجر.

ما دام وجه الهندية قد أطل فلا بد أن السائق قد تنبّه إليه .. فتادى ف الضغط على البوق .. أمله يخيب . يزفر .. يضغط .. يمسح العرق .. يضغط .. تمد الهندية ذراعًا ذابلاً زمت أطراف أصابعها وحركت يدها بإشارة تعنى .. مهلاً .. مهلاً .

لكنة لم يتمهل .. ألقى بكل ثقل كفه على البوق .. ضغطت البنات على آذانهن .. بينا تطايرت أخريات كُنَّ قد التصقن بالباص تحادثن من في داخله .. وتتفقن على بعض الأشياء للغد .

* * *

أخيرًا .. ترجّل سائق السيارة الفارهة .. كان يبدو وكأنه فقد أعصابه .. دنا من الباص .. خاطب السائق من نافذته المفتوحة :

_ يا حار! لماذا تنهق ؟؟

تضاحکت الطالبات .. کأنهن یشمَثْنَ بالسائق الذی یُخرسَهُنَّ دائمًا .. ولکی یداری خزیه من الطالبات تکلم بهدوء :

- _ سامحك الله .. أريدك أن تفسح لى الطريق .. لقد عطّلتنا . لكن السائق الآخر هزّ يده في الهواء وزعق :
- _ تعطّل . ما الذى يحدث لو تعطلت ؟ هل تحمل ابن وزير أم ابن رئيس ؟؟ هدّأه السائق :
 - _ يا أخى .. أرجوك .. الدنيا حر.. والبنات لهن أهالى ينتظرون . لكن الآخر رفض مهددًا :
- ـ لن أمشى .. ووالله لو نفخت بوق باصك هذا ثانية فسأجعل سيدى يأتى

غدًا .. ليحطّم رأسك . تنهّد سائق الباص مستسلمًا .. أطفأ المحرك .. مسح بمنديله المتسخ عرق وجهه والتفت إلى الطالبات :

هيا اسكتن . ستبقين في هذا الفرن حتى يتكرم هذا السائق المغرور . .
 ويتحرك .

لاح يأس على وجوه الطالبات .. تهامسن :

_ هذا سائق غنيمة .

تناهى للسائق همس الطالبات .. التفت إليهن :

_ غنيمة من ؟ ابنة من ؟؟

لم ترد عليه واحدة .. انكمشن صامتات .. بينها تعرقت ثيابهن حتى بدت وكأنها مغسولة بالماء .

مرّت نصف ساعة قبل أن تقبل من داخل المدرسة طالبة سمراء .. فى الرابعة عشرة من عمرها .. تبدو أنيقة .. مرتبة .. حذاؤها رغم تعب النهار يبدو نظيفًا .. تربط جديلتيها بشرائط بيضاء ناصعة .

ـ آه .. يبدو أنها بنت أكابر .

قال سائق الباص وهو يلتفت بنصفه إلى الطالبات.

ردت طالبة:

_ أبوها تاجر كبير مشهور .

- ومغرور.. وسائقه مغرور.. وطبعًا ابنته مغرورة. تصايحت بعض الطالبات باحتجاج:

ــ لا .. غنيمة ممتازة .. متواضعة .. طيبة .. و .. و هزّ يده مهدئًا :

_ طیب .. طیب .. الله یرزقنا کها رزقها .

تفوه بأمنيته .. ولم يكن يتصور أنها مخزونة فى قلوب الطالبات المكدسات . . فوجئ بأصواتهن تردد :

_ آمن

* * *

الطالبة السمراء تقترب . الهندية ذات الذراع الذاوى تترجّل تحمل حقيبة الطالبة ، تفتح لها الطريق . السائق ينزل من السيارة يفتح الباب .

دلفت الفتاة .. استرخت .. نوافذ السيارة مغلقة .. في الداخل مكيف هواء يعمل .

تحركت السيارة .. فتحرك الباص . مدّ السائق يده أدار جهاز الراديو فجاء صوت المذيع أجش يقرأ نشرة الأخبار .

_ أف ..

زفر السائق ، وأخمد صوت المذيع وهو يزفر :

ــ أخبار ألشوم ..

سألته إحدى الطالبات:

_ ليش ؟ ما بدلك تسمع أخبار الوطن ؟؟

ـ إيه .. خلوها مستورة .

كأن الطالبات عرفن سرّ التنهيدة الطويلة العميقة بدأن يصفقن ويغنين : «هو ذا الصوتُ من الأرض السمراء آت من حقلي .. من شمسي .. من آلام شعبي آت» شدّه الحنين إلى الوطن .. دمعت عيناه .. لاحظت إحدى الطالبات الدمعة الحزينة المنهارة على خدّه :

- _ لماذا تبكى ؟؟
- _ تذكرت البلد.
- _ هل تذكرها جيدًا ..
- ـ بالطبع .. غادرتها حين كان عمرى عشر سنوات .
 - _ آه ..

تنهدت طالبة وتابعت:

- _ نحن لا نعرفها .. أهلنا فقط يتحدثون عنها .. فنحبها . هز رأسه :
 - ـ الوطن غال يا بنتي .. الوطن غالرٍ

يرتفع صوت الطالبات بنغمة شجيّة :

باسم الحرية راجعين يا فلسطين ... فلسطين عربيّة ... فلسطين

الصوت يعلو .. الحريتزايد .. الشمس المحرقة ، وتحدّق إشارة المرور الحمراء بوجه السيارات .. أشار سائق الباص إلى الطالبات :

_ هس .. اسكتن .. بلاش أغاني .

كانت السيارة الفارهة التي تحمل غنيمة ملاصقة في تلك اللحظة للباص .. تدلت رؤوس الطالبات إلى السيارة أطل وجه غنيمة من خلف الزجاج .. ابتسمت ، أشارت بيدها تحيى .. فتحت النافذة .. تصايحت الطالبات .. كل تريد أن تقول كلمة .. قبل أن ترد غنيمة على كلماتهن كانت الإشارة تبتلع غضبها الأحمر .. ويتبدل إلى أخضر.

环 环 张

الطريق الممتد واحد . أخذ سائق الباص يسابق السيارة والطالبات يغنين . فَرحات . وحين تسبقهن السيارة ترتفع أصواتهن باحتجاج :

ـ ياه .. أبو راجح الله يخليك اسبقها .. اسبقها .

يتعجب:

_ إيه ! أسبق كاديلاك؟ هذا باص «كَحيان» (١) . ويختلط رجاؤهن :

_ ولو اسبقها ..

_ بَسِيْ . أمامنا إشارة ثانية .

يقف الباص ... السيارة بجانبه .. تطل الطالبات وهن يرددن باق الأغنية الحاسية :

«وجثت طلقة .. وجثت صفعة ...

لكل ضمير خاثر ...

تركت النجم .. تركت الآه ,. تركتُ النَّغُم الحائر و

غنيمة تفتح نافذتها .. تطوف على وجهها سحابة حزن وتمن . يلتفت سائقها يشير لها أن تغلق النافذة التي تسرّب منها صدى أغنية شعبية وطنية .

صوت الطالبات يرتفع يتحدى ارتفاع النافذة الزجاجية . غنيمة تبتسم لهن .. تشير بحاس .. انسجام هادئ يطل من عينيها .. وألفة .

* * *

عند آخر إشارة يفترق الباص عن السيارة التي دلفت إلى أحد الأحياء السكنية .. ويتحول الباص إلى منطقة $(-\tilde{\epsilon}_0 \tilde{k}_0)^{(1)}$ حيث ستبدأ رحلة توزيع الحيول إلى اصطبلاتها .

الحياة عامرة .. المحلات التجارية .. البقاليات المتناثرة .. المارّة تكتظ بهم الأرصفة ... رجال .. نساء طالبات .. وطلبة .. يهرولون هربًا من الحر إلى البيوت ، المطاعم ومحلات شيّ الدجاج تفوح رائحتها الذكية فتثير إحساس الجوع في نفوس الطالبات .. يتلمظّن . تتمنّي إحداهن :

- ـ ليت أمي تكون طابخه دجاجًا ..
 - قالت ثانية:
 - _ اليوم سنتغدى « مجدّرة » (٣)
 - شهقت أخرى:
 - _ ياه .. أنا أحبها ...
 - بينها تأففت أخرى :
 - ـ يوه .. أنا أكره هذه الأكلة .
- لم توافقها كثيرات من الطالبات .. حتى سائق الباص :
- هذه أكلة غنية .. إنها «مسامير الركب» ضحكت الطالبة :
- لا أريد مسامير لركبي ، أنا قوية .. ألعب الجمباز أحب الدّسم .. دجاج .
 لحم .. بازيلا .. بطاطا ..
 - ــ إيه .. صحتين على قلبك
 - قالها السائق وتوقف عند أول المنعطفات وفتح باب الباص:
 - ـ هيا .. اللي عليهن الدور ...

تدافعت خمس طالبات .. وما أن أغلق الباب حتى أخذت من فى الباص يشرن بأيديهن مودّعات لصويحباتهن متمنيات أن يأتى دورهن بسرعة .

خَفّ حمل الباص .. أخذ الهواء الرطب السجين حريته .. لطف الجو قليلاً .. انخفض صوت الطالبات .. يتحادثن أحاديث مختلفة ويقلدن بعض مدرساتهن أو يشتمن بعضهن .. ونسين في غمرة مرحهن التأخير الذي حدث حين أصراً سائق غنيمة على الوقوف .

* * *

سيارة غنيمة تبدأ رحلتها فى الحى السكنى .. الهدوء يخيم على الشوارع .. لا محلات تجارية ! ولا بقاليات : لا رائحة دجاج ولا زعتر تفوح .. النظافة واضحة والحشائش المزروعة تلفظ أنفاسها الخضراء فى هذا الحر الشديد .. أغصان الشجر تلبدت أوراقها ... فلا نسمة تهزّها .. ولا حركة بشر .. ولا أغنيات تنبعث من شبابيك باص !

أحست بالضجر.. لا يزال سَمْعها يحمل رنة الأغنية الحاسية.. قالت في نفسها:

_ « غدًا .. سأطلب منهن كلمات الأغنية . »

فرحت لهذا القرار وهي تتذكر وجوه الطالبات ، الفرح المنتشر على وجوهن رغم تكدسهن في باص غير مكيّف .. وتنهدت ..

* * *

فى البيت .. فاحت رائحة الطعام الشهى".. رغم هذا قالت لأمها: - لا أحس برغبة في الأكل.

وانهال دلال الأم .. أخذت تعدّدها الأصناف المطبوخة والمقبّلات .. لكنّ

الفتاة ظلت صامتة .. تجول عيناها فى أنحاء المكان .. كل شىء نظيف .. جميل فخم .. رائحة العزّ تفوح كها تفوح رائحة الطعام . وصوت أمها يأتى كأنه من البعيد .. فى أذنيها لا تزال تتلاعب موسيقى الأغنية التى لا تحفظ كلماتها يتاوج معها صوت ضحكات الطالبات وفرحهن الصادر من القلب . تطلعت فى وجه أمها وإذا سحابة خوف تنتشر عليه :

- غنيمة .. ما بالك ؟؟ هل أنت مريضة ؟؟
 - ـ لا يا أمى .
- _ إذن .. ما بالك صامتة ! ولا تريدين أن تأكلي ؟؟
- أنا أحلم .. أحلم يا أمى ..
 واستلقت على المقعد الوثير وسؤال أمها ينطلق فرحًا :
 - _ تحلمين ! بماذا ؟؟ قولى كل أحلامك تتحق حالاً . تلاعب حزن في وجه الفتاة .. أكدت لأمها :
 - _ إلاّ هذا الحلم . وحثتها أمها :
 - _ كل الأحلام أحققها لك ..

اعتدلت:

_ إذن .. أريد أن أركب الباص مثل بنات حَوَّلَى .

و

انكمش وجه الأم . * * *

١ _ كحيان كلمة فلسطينية بمعنى « قديم ومهترى ».

٧ _ حوّل _ منطقة أغلب سكانها من الإخوة الفلسطينين

. ٣ - مجدّره - أكلة فلسطينية - مثل الكشرى .

على سيفسر

صفرة السماء الذهبية تنعكس على الوسادة ، ورأسه مصلوب عليها .. أنظر إلى جثته ممدّدة أمامى .. غير مصدّق أنه مات ... ولولا صراخ أمى وولولتها لظننت أنه يغفو غفوة طويلة سيصحو منها بعد حين .

إخوتي يتحركون حول الفراش .. ينظرون إلى وجهه الأصفر .. هل حقا هو يودعهم إلى الأبد؟؟

يتطاير إخوتى .. أحدهم يقطع المسافة ما بين السرير وباب غرفة النوم كالحلم .. آخر يمسك بسماعة الهاتف ويزج إصبعه داخل الدوائر يحرِّكها بأرقام لا تلتقطها عينى .. أحسن أنه يخطئ الرقم .. كيف عرفت ؟؟ عيناى تتابعان إصبعه .. ها هو يضغط على دواسة الهاتف ويعيد طلب الرقم ثانية .. أمى لا تزال تولول .. verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحدى أقف لا أفعل شيئًا ... أسلط عينى على وجهه ثم أسافر بهما فى أرجاء الغرفة الفاخرة .. هذا السرير العاجى .. وتلك اللوحة النادرة التى تتصدر الحائط فوقه .. وهذان شمعدانان بالتأكيد لم يضيئًا مرة .. هما للزينة فقط .. وبقرب السرير ترتاح الشّاعة المذهبة ملابسه تتدلى منها .. دشداشة حريرية تتساقط أكهامها جانبًا بفعل الثقل الذى تحمله تلك الأزرار الذهبية .. غترته البيضاء معلقة فوق العقال .. تحرك أطرافها نسات الهواء الباردة الآتية من فتحة التكييف .. أحسها تولول هى الأخرى تبكى صاحبها .. وعلى السجادة ذات الشعر «الموهير» يرتاح نعلاه جلد المحساح :. واحد فوق الآخر .

- على سفر ـ هكذا يقولون . ولذلك كانت أمى تحرص على ألا يركب نعلا أبى واحد فوق الآخر لأنها تكره سفره عنها . لكن أسفاره لا تتوقف . حاولت أن تبقيه في البيت شهرًا واحدًا دون أن يغادر مرة واخترعت حجتها لذلك قالت له :
 - أشتهى أن تحتفل معنا بعيد رأس السنة الجديدة.
 لكنه نظر إلى وجهها يفوح من نفسه اشمئزاز:
 - _ ماذا أفعل بينكم ؟ هل تحتاجون لشيء ؟؟
 - قالت أمى:
 - ـ لوجودك .
 - وطبطب على كتفها :
 - ـ البركة في الأولاد .
 - وقبل أن يغادر التفت إليها كَمَنْ يطمئنها:
 - ـ سأترك لك مبلغ عشرة آلاف دينار .. قد تطول سفرتي .

عيناى على نعل أبى .. واحد فوق الآخر . أبى على سفر . هذه المرة يسافر إلى الأبد .

اقتربت .. أردت أن أزيح النعل عن رفيقه لكنى تراجعت .. خشيت أن يصحو ويقرر أن يبتى ثانية وأنا لا أريده أن يعود .. تركت النعلين وعدت بنظرى إلى جسده المستربح بوقار على السرير المجهز بآخر صيحات الديكور .. أزرة تملأ رأس السرير .. هذا الزرار تليى أمى نداءه .. وهذا يلبى نداءه السكرتير «مُنْعم» . يأتى حاملاً البريد وأوراقا أخرى تحتاج لتوقيع .. وشيكات كثيرة يحمل كل واحد منها رقمًا خياليًا . وهذا الزرار «لسلّوم» الصبى يأتى حاملاً القهوة المُرّة .. يَصُب وأبى لا يشبع وينتظر حتى يهز الفجان مُكتفيًا . وقد راقبت أكثر من مرة وجه سلّوم مُتململاً بانتظار أن يتكرم أبى ويهز الفنجان .. واصطدته أكثر من مرة وهو يكرع باقى القهوة فى المر الذى يفصل غرفة النوم عن الصالة الكبيرة . سلّوم يتكوّم الآن قرب السرير مثل حيوان بانتظار أوامر سيده يستند بذراعيه على ركبتيه ويسقط رأسه بين الذراعين .. دمعة تترك آثارها على وجنته السمراء الداكنة .. وأشفق عليه .

لماذا يبكى ؟؟ هل يفكر بمستقبله بعد أن رحل وَلَى نعمته ؟؟ أم تراه حقًا يبكى أبى الذى لن يرى وجهه بعد اليوم .. ولن يصب له قهوته .. سلوم يحب أبى فعلاً رغم الضرب المبرّح الذى يناله لأتفه سبب . هو جالس الآن كالكلب الأمين يبكى صاحبه .

جرس الهاتف يزعق .. يرفع أخى السهاعة وكأنه يعرف صوت مَنْ سيأتى . صوته يخترق سمعى .

_ نعم ياخالي .. أعطاك عمره .. تعال بسرعة .

قبل أن يغلق تمتد يد أمي تسحب سماعة الهاتف.

_ ياخوى مات .. بوحمد مات .. أبو عيالى مات . نشجت بعواء جديد تساءلت لماذا يصدر عنها ! هى التي رغم عطايا أبى لم تكن يومًا سعيدة معه .

* * *

كان شجارهما يصل إلينا دائمًا .. لهاث أمى .. صوت بكائها يخترق حائط الغرفة ليفجّر فينا ينابيع الحقد على أبى. قبل سنوات كان لا يتوانى عن ضربها الغرفة ليفجّر فينا ينابيع الحقد على أبى. قبل سنوات كان لا يتوانى عن ضربها أمامنا بالعقال .. أو بالتعل .. كانت تكتئب وتدارى. وجهها المبتل خجلاً منا .. وبعد يوم أو اثنين نراها باسمة فى وجه أبى .. وتراه يقدم لها مصوغة جديدة من الماس أو الذهب .. وترضى .. وفى نفس اللحظة تخترع مناسبة :

- غدًا سأدعو بعض الصديقات على فنجان شاى . يبتسم أبى بمكر يفهم أن المناسبة هي أن ترى الصديقات الهدية الجديدة وستعرف أمى كيف تخترع سببًا وجيهًا تؤكد من خلاله حب أبى لها وسخاءه عليها . لكنها بينها وبين نفسها تفهم أن هذه الهدية لم تكن إلا ثمنا للصفعة التي حصلت عليها .. وبكت ليلة أو ليلتين ذُلا وحزنًا .

الآن هي تولول ... أف .. لماذا تحزن ؟ لماذا لا تزغرد ؟ لماذا لا تواجه أبي بفرحها وتنتقم من كل الأيام والسنوات السالفة ؟؟

وسلُّوم أيضًا يبكى .. لماذا يتكوّر هكذا قرب السرير؟ دنوت منه :

_ قم .. حضّر القهوة . خالى سيأتى الآن .

وتحرك بسرعة أذهلتني . كأنه كان يتمنى أن أطلب منه ذلك ليرتاح من فعل

مجاملة .. أو ربما لينتحى جانبًا آخر ويبكى على راحته .. ,لا أدرى .. هل يخزن حقًا هذا السلوم ؟؟

وحدى أنظر إلى الجسد بحقد .. بكراهية .. تتفجر من عيني أسئلة .. ماذا لو يعود الآن؟ هل أصرخ في وجهه :

- لاأريد كل هذا .. لاأريد .
 ثم أعلو بصوتى أكثر :
- مرة يا أبى قُلْ لا .. مرة اصفعنى كما تصفع أمى وقل لى لماذا علاماتك هابطة رغم وجود مدرسين خصوصيين .. مرة ابصق فى وجهى حين أجىء إليك وقد هشَّمتُ السيارة الجديدة ! أو أتلفتُ الساعة الذهبية . لكنك أبدًا لم تفعل تنظر إلى بلا مبالاة ثم فى اليوم التالى تأتى :
- _ ياحمد .. خذ هذه ساعة بدل التي أتلفتها .. ثمنها ألف دينار .. هل تعجبك ؟؟

أهز رأسى. لا أبدى إعجابى ، أتمنى لو أمسك بالساعة وتواتينى الشجاعة فأخبطها فى رأسك أتمنى لو أنها غدًا صباحًا تُسرقُ من يدى .. وأحاول ذلك بنفسى .. أنزعها .. أضعها فوق طاولة النادى حيث أضيّع يومى . لكن الكلب فرّاش النادى يتبعنى بها :

- عمى حمد .. ساعتك .. نسيتها .. الله ستر . وأحمل الساعة .. أحسها ثقيلة كالزّمن الذى حولى وتبقى معى حتى أساهم فى ضياعها وأنا متأكد أن غيرها سيسجن يدى .

الساعة التي على الكوميدينو ترقص عقاربها . الوقت يمضى وأنا أرقب وجهه الأصفر وأتمنى ألاّ يعود فربما استطعت منذ الغد أن أسترد بعض ما فقدت .

أستطيع أن أفعل شيئا أحبه .. أركب « باصًا » أو « وانيتًا » (١) أو دراجة بخارية .. وأخاصم السيارات الفارهة إلى الأبد . أريد أن تبدأ حياتى من جديد ولن يأتينى صوته ثانية يويخنى :

- ـ لماذا تعاشر أبناء الفقراء ؟ وتدرس معهم ؟؟ ولن أسمع كلماته تذبيح طموحاتى حين لا أحصل على نتيجة جيدة :
- لا يهم ياحمد . آلدراسة لن تفيدك بشيء . أنت والحمد لله في نعمة يحسدك عليها كثيرون . فتحت لك محلاً تجاريًا . . وعارات كثيرة سجلتها باسمك تدر عليك الربح . . ورصيد لك في البنك . . يكفيك أن تصرف في اليوم الواحد ثلاثة آلاف دينار لسنوات طويلة .
 - _ ولكن يا أبى _ فى محاولة للاعتراض _ أريد أن أحصل على شهادة . ويسكتني :
- _ التجارة شهادة .. والمال شهادة . أُنظر إلى .. هل معى شهادة .. ومع ذلك حققت لكم ولنفسى كل شيء . ثم يبتسم باستهزاء كم كرهته :
 - ـ خلِّ الشهادة لأولاد الفقراء.

خد ...

ويقدم لى مفاتيح سيارته :

ـ اركب الرولز رويس .. تمشى فيها على الكورنيش ألف فتاة ستطاردك .

* * *

أمى تبكى .. أف ... هلى يستحق حقًا دمعة منها ؟؟ عشرات النساء الآن متى عرفن ستحزن قلوبهن لأن أبى لن يرشهن بعد اليوم بالمال .. أما أمى فكل شىء باق لها .

ألامس كتفها بحنان:

ــ أمى .. يكنى .

وتتسارع مدائحها :

ـ كان الحنر .. والركة . كان . كان . وكان ...

آه .. لا تكذبي يا أمى .. كان لا ينظر إلى وجهك المستور إلا نادرًا .. وكان يكيل لك التأنيب ، يصرخُ فى وجهك .. يضربك .. هل نسبت ؟؟ وكنت ترين أحمر الشفاه على ملابسه .. وتشمين روائح النساء الأخريات فى طيات جسده وحن سألته :

99 lia La _

قال حتى دون أن يتكرم بالالتفات إلى وجهك المتسائل:

_ « مو (٢) شغلك » .

ولم تسكتى .. بمذَّلة توارثناها منك سألته :

۔ هل تعرف واحدة غیری ۴۴

وضحك هازيًا:

ــ واحدة .. عشرًا .. أنا رجل .. وحر ..

لم تكونى يومًا ما حرّة يا أمى . كنت سجينة لهفتك على المجوهرات . . والملابس الفاخرة التى تغيظين بها أمثالك من النساء الذليلات . . بينا أشباح النساء الأخريات تلاحقك حتى فى منامك . وفى رائحة أنفاس أبى . هو رجل . . وعنده مال قارون . المال الآن كله لك يا أمى .

هززتها :

يكنى يا أمى .. أبى مات وانتهى الأمر .

وحدى أفرح .. أحس أبواب الحياة المغلقة تشرع نفسها لى .. وتدعونى أن أرتمى فى أحضان الحرية . سأترك كل شىء منذ اليوم .. سأدوس على هذا الذى يتصوره أبى نعمة .. سأتمنى بعد أن كسر سلم الأمانى تحت قدمى . سأحلم .. بعد أن مسح كل أحلامى .. سأذوب فى بحر الحياة بعد أن أذابنى فى حياة الترف فسبحت فيه مرغمًا بينا أصدقائى الفقراء الذين يحتقرهم صاروا أطباء ومحامين .. وكل له حرفة يمتهنها بعد أن عرق جبينه .. بعد أن حَلَم طويلاً .. بعد أن ركضوا وتعبوا ... هم الآن يرتاحون على بساط جهدهم وقد وصلوا ...

أصل إلى وجه أبى المسجّى . أدقّق فى ملامحه التى كستها صفرة الموت . عيناه مسبلتان بهدوه . . فجأة : أرتعش . . أستيقظ . . فتستيقظ فى عينى دمعة كبيرة . . تكاد تخترق جدارها لكنى أحبسها . . وينتفض فى قلبي إحساس غريب . . إذن . . . أبى حقًا يموت . . يرحل إلى الأبد . . هل كنت أنتظر نهاية رحلته مع الحياة لتبدأ رحلتي إليها ؟؟ أنزلق بعيني حيث يرتاح نعلاه . . لا يزالان واحدًا فوق الآخر - على سفر - أقترب بهدوه . . أنحني أساوى النعلين . . فى تلك اللحظة . . تسقط الدمعة الكبيرة . .

* * *

⁽١) وانيتًا : سيارة شحن صغيرة .

⁽٢) مو: ليس.

الكبسة

ارتدت عباءتها وأمرت كنتها:

_ قومي يا عائشة ..

فى انكسار واضح .. نهضت عائشة ــ مسحت يديها بفوطة مبللّة ملقاة قرب «الدّوة (١١) » وتبعت أم زوجها .

* * *

في الطريق همست أم زوجها :

_ عسى أن يكون على يدها الشفاء.

تعثرت الكلمات على شفتي عائشة:

_ تظنين أنه بعد هذه السنوات التسع :

شدت على كلاتها:

ـ لا تفكرى بالأمر .. «أم الشيبة» معروفة لم تقصدها واحدة وحجاب أملها

_ آه .. أنت لا تيأسين يا «خالتي» (٢)

كانتا في تلك اللحظة قد مرّتا قرب بيت «الناعوم» أطلت عجوزهم بشجرها

_ صباحكم الخير..

الأحمر:

تشاءمت المرأتان من وجهها . ردتا بالتناوب :

ـ صباح الحنير..

هلا .. ومرحبا ...

. وبفضولها المعهود سألت :

ــ ها ! وين على الله فى هذا الصباح ؟؟ ردت الحالة :

_ عندنا «شغل» في السوق.

. مدت ذراعها الذاوى:

- انتظرانى .. أحضر عباءتى .. وأجىء معكما . حين دخلت لتحضر عباءتها كانت عائشة وخالتها قد فرتا إلى زقاق جانبى .. وتوارتا عن الأنظار

* * *

قالت بصوتها الراجف ، وخطوهما لا يزال يفض بكارة صمت النهار : - والله العظيم يا خِالتي رأيته .. بعمرى ما رأيت هرَّا بهذا الحجم .. وقف عند عتبة الباب .. هرِّ يده اليمني وسمعته ينطق بالكلمات :

« لن تنجبي أبدًا »

قرصت خالتها ذراعها الدافئ.

_ بَسْ : قلت لك ألف مرة .. لا ترددى هذا الكلام .. هذا جنون .. وسوسة شيطان .. أو قد يكون «الجاثوم» (٣) .

انكسرت عينا عائشة إلى الأرض. وواصلتا السير.

* * *

فتحت أم الشيبة الباب .. فهمت :

۔ أهلاً بالحبایب .. كان ودّى بهذه الزيارة من زمان .. هَمَزت الحالة على ركبتها وابتسمت متقربة :

- كلك خير وبركة .. ويدك فيها العافية إن شاء الله . ونظرت إلى عائشة وغمزت ، فتطلعت «أم الشيبة» إلى وجهها المنكسر وسألت مازحة :

_ خائفة يتزوج خالد من امرأة أخرى ؟؟

تدخلت أم الزوج حين لمحت حزنًا يطوف بوجه كنتها :

ب والله خالد لا ينوى الزواج .. لكنه يريد ذرية .

أكلت «أم الشيبة» وهي تهزّ رأسها:

_ معه حق .. معه حق ..

ثم تربعت .. واستعدت :

_ شوفى يا أم خالد .. تسع سنوات .. ولا فائدة .. هذه المرّة لن تفيد مع عائشة إلاّ زيارة امرأة نفساء ..

اعترضت أم خالد:

ـ بس يا أم الشيبة .

فهمت المرأة قصدها:

لا يهم .. أنت يهمك أن تحبل كنتك .. وأن تشمى رائحة ولدك الغالى فى
 ذريته .. وما عليك من غيرك ..

- لكن: حرام .. ما ذنب بنات الناس ؟؟

- أى ناس! الله يهديك يا أم خالد .. سنذهب عند واحدة لا تعرفونها . تبادلت أم خالد وكنتها النظرات .. وارتخت رموش عائشة بعدها لتحذف معها دمعة .

* * *

في طريق العودة .. سألت خالتها .

وكيف سنعرف الوالدات من غير اللواتى نعرفهن ؟
 أجابت خالتها بلهفة توحى بأنها تستعجل الأمر :

ـ نسأل الناس . ومن يدلنا نعطيه البشارة .

* * *

فى الظهيرة . دخلت الدّلالة البدوية «أم دهّاش» كعادتها تحمل بقشتها . . وتفوح منها رائحة «المحلب» . . عرضت بضاعتها . . اقتربت أم خالد تتفحص :

ــ ماذا عندك اليوم يا أم دهاش؟ تراجفت شفة البدوية الرخوة . وأخذت تعدّد :

- بخور .. حلتيت .. ديرم .. علك بصرى (١) .. و ... قاطعتها أم خالد :

ـ كل هذا لانحتاجه اليوم ...

شهقت أم دهاش:

ـ تردّينني خائبة يا أم خالد؟

ضحكت أم خالد .. واقتربت منها أكثر .. وصوتها يخفت قليلاً :

ـ لا يا أم دهاش .. لكن طلبنا اليوم صعب .

خبطت البدوية على صدرها بثقة :

ـ ما يصعب شيء على أم دهاش .

_ بارك الله فيك .. لهذا قصدتك ..

فرحت البدوية بثقة أم خالد .. وأكدت :

ـ تدلُّلي يا أم خالد .. والله لو طلبت عيون دهَّاش ترخص لك ..

عسى عيونه سالمة .. وعَساك بخيريا أم دهاش ..

استعجلت البدوية الطلب :

_ ها . . طلبك ؟؟ مرادك ؟؟

استوت أم خالد في جلستها . . فاح طعم الرجاء من كلماتها :

- نريد يا أم دهاش أن تقوم عائشة بزيارة لا مرأة نفساء حتى يحقق الله لها مرادها .

خبطت البدوية على صدرها:

ـ يا قليبي يا عائشة ... طال صبرها ... و

تلعثمت .. تهدلت شفتها وسال منها بعض اللعاب .. أكملت :

ــ لكن يا أم خالد.. هذا الأمر قد يؤذى النفساء.. أو الطفل... وتعرفين.....

قاطعتها أم خالد مهدّثة:

_ يا أم دهاش .. نريدها أن تدخل على واحدة لا نعرفها .. نحن لا نريد أن نؤذى من نعرفه ..

استراحت تقاطيع أم دهاش:

_ فهمت قصدك .. أذية المعارف حرام .

أثنت أم خالد على ذكاء البدوية :

ـ كلك بركة يا أم دهاش .. وأنت يا «عوينتي» تلخلين كل البيوت .. وتعرفين أسرارها .. ومتى عرفت عن ولادة .. أخبرينا ...

غادرت البدوية .. طرقت الباب وراءها ...

وكان أمل جديد يطرق قلب عائشة .

* * *

هو الليل يأتى . غلالة سوداء تنسدل تدريجيًّا على الأحياء الطيبة ، تنعس العيون . تهجع الدجاجات فى أقفاصها . وتخمد رائحة المواقد ، تبرد فيها أباريق الشاى . .

وعيناها .. لؤلؤتان ليليتان تنتظران زائر الليل :

_ سيأتى الهر الليلة . سيقف عند الباب .. سيهزّ يده

لا .. لن ينطقها الليلة .. سأضربه .. سيصمت للأبد .. و أخذت تلاعب خصلة من شعرها .. وتعليات أم الشيبة تتوالى في رأسها :

_ شوفى يا عائشة .. سابع يوم بعد العادة الشهرية ... تغتسلين .. و و .. و

* * *

حفظت الدرس ...

سأغسل شعرى .. سأتركه مبللاً .. يجب أن أذهب إلى النفساء وهو كذلك ... و...

_ To ... To ...

لم يسمع سوى الليل نهدتها المسحوبة من صدر حزين ... ورددّت فى سرها :

سيتقاطر الماء وإن شاء الله سوف أحمل . ابتسمت لنفسها .. وتحسّست بطنها المشدود الذي لم يحتضن بعد طفلاً .

* * *

خالتي قالت لأم دهّاش:

_ ستكون عطايانا لك ثمينة لو حملت عائشة .:

وشفة البدوية انفرجت عن أسنان متفرقة صفراء.. والفرحة نطقت السانها :

_ أريد سلامتك يا أم خالد .. يا أم العطايا .. والكرم . وردت خالتي :

> ـ تستاهلین . یا أم دهاش . . وأنان . . .

ألا أستاهل أن يكون لى طفل!! ولحالد أيضًا .. وخالتى الملهوفة على حفيد .. ألا تستاهل أن تفرح : والأهل .. والأقارب .. و ... لكن : ألن يؤذى هذا النفساء أو المولود؟! ...

لا .. قالت خالتي سنذهب لواحدة لا نعرفها

آه .. متى تأتى أم دهاش .. ويتقرر الذهاب ؟

تحسّست فاطمة رأس الطفل .. دافئًا لا يزال ... ارتعش قلبها .. سمّت بالله ثلاثًا .. غطت سريره بطرحة من الشاش الأبيض . واستلقت على ظهرها .. وفي نفسها أمنية كبيرة : أن يحفظ الله طفلها .

من الغرفة تفوح رائحة «النفاس» حلبة .. رشاد .. و «حُسو» (٥) .. وجسد لن يستحم قبل الأربعين .. رائحة حموضة تفوح من ثوب فاطمة التي درّ حليب صدرها فبلله .. أمها تروح وتجيء في الغرفة ترتب المطارح والمساند .. وتقش السجادة بخفة .. قبل أن يأتي الزوار .. والمهنئين .

حين أكملت عملها التفتت إلى ابنتها:

_ هل أرضعت الطفل؟

جاء صوت فاطمة مشحونًا بالأسى:

ـ حاولت للمرة الثالثة .. ولم يقبل ..

ـ ألا تزال حرارته مرتفعة ؟!

ـ نعم.. وقد أفرغ كل الحليب الذي رضعه هذا الفجر..

اقتربت أمها .. جسّت جبهة الصغير، نظرت لا بنتها في محاولة لتطمينها :

_ لا تقلق .. ليس له إلاّ العافية . : ثم اتجهت نحو باب الغرفة .. يتباعد صوتها معما :

_سأعد لك «عصيدتك» (٦) تأكلينها قبل أن يأتى أحد قبل أن تكل جملتها كانت يد تطرق باب البيت.

* * *

دخلت أم دهاش .. تتبعها عائشة بخطى مرتجفة . رحبت أم فاطمة بالدلاّلة

بحرارة تعودتها .. ومدت أطراف أصابعها إلى عائشة بينما ينطلق سؤال من عينيها لأم دهاش «من هذه؟»

وضّحت أم دهاش حين فهمت سر النظرة : ... قابلتها في السوق . تبحث عنى .. لها عندى حاجات .. طلبت منها أن ترافقني لأطمئن عليكم ما دمت قريبة من البيت ..

واستدارت لعائشة لتؤكد:

ـ حبيبة وبنت ناس ...

رحبت أم فاطمة ببنت الناس:

_ يا هلا .. ومرحبا .. تفضلا ..

لكن شكًا لاح من عينها .. واشتعل وسواس حارق فى فؤادها .. فتعوّذت من الشيطان ثلاثًا .كانت أم دهاش تسبقها إلى غرفة فاطمة . وعائشة تتبعها بتثاقل .. ووجل ..

ـ بسم الله الرحمن الرحم ...

بسملت أم دهاش وهي تضع قدمها اليمني عند عتبة الباب .. وهكذا فعلت عائشة ..

اخترقت الرائحة صدرها .. وتمنت :

_ متى تفوح عندنا مثل هذه الرائحة ؟؟

* * *

مالت الدلالة على رأس فاطمة .. قبلته .. وابتعدت لتقرّب عائشة .. تفعل ما فعلته رغم عدم معرفتها بالمرأة .. erted by Till Collibria (110 Statilps are applied by registered version)

« يجب أن يتقاطر ماء شعرك على الوالدة حتى وانسدلت جديلتان رفيعتان .. امتدتا كنهرين يضيقان عند مصبهها و .. تقاطر الماء تنفست أم دهاش بارتياح

_ تفضلا ..

دعتها أم فاطمة للجلوس لكن أم دهاش اعتذرت:

_ أنا مستعجلة .. وعائشة لها عندى بعض حاجات و

نقلت بصرها بين وجه أم فاطمة التي تقف وسط الغرفة ووجه عائشة خشية أن . يكون انفعال ما قد رفّ على وجه العاقر.

حين اطمأنت .. التفتت إلى فاطمة في مرقدها :

- لا إله إلا الله .. أنت اليوم أحسن من الأمس . سحبت عائشة مودّعة .. ورافقتها أم فاطمة إلى الباب .. وما أن عادت حتى أشعلت البخور ، وأخذت تدور في الحجرة .. تُبَسمل .. وتتعوذ من الشيطان .

* * *

مات الطفل ...

بعد ثلاثة أيام من زيارة عائشة وأم دهاش .. ظلت حرارته مرتفعة .. ورفض صدر أمه .. حتى ودّع في ذلك الصباح ..

أم فاطمة حلفت أمام النساء المواسيات بأن الطفل كان بصحة جيدة . . حتى دخول أم دهاش ورفيقتها . وبكت فاطمة بحرارة :

_ حسدته المأة ..

وانبری صوت إحدی الحاضرات :

_ هل تعرفون تلك المرأة ؟؟

ردت أم فاطمة بأسف:

ـ لا والله .. ليتني أخذت من أثرها ...

وألحت المرأة :

_ إوصفيها لى يا أم فاطمة .. فقد أعرفها ..

ووصفت أم فاطمة المرأة .. طولها .. لون بشرتها .. و .. كأنها تذكرت :

_ وعلى جبينها شامة كبيرة ناتثة .

وشهقت المرأة :

_ حسبنا الله ونعم الوكيل . هذه عائشة كنة أم خالد .. وهي عاقر ..

ثم التفتت لفاطمة مستفسرة :

- هل انحنت عليك ؟؟ هل تقاطر ماء شعرها على صدرك ؟ هل سحبت نفسًا عميقًا ؟؟

هزت فاطمة رأسها بالإيجاب فانحدرت الدمعة الواقفة على وجنتها ..

وتنهدت المرأة :

_ ياويلها من الله .. لقد كَبُسَتُكِ .

وصرخت أم فاطمة :

ـ ياويلها .. ويا ويلك .. منى يا بدوية النحس .

* * *

لم تعد أم فاطمة تفكر بالطفل الذي مات .. انصب كل همّها .. وتفكيرها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالطريقة التي تفك بها الكبسة عن فاطمة .. التي قد لا ترى وجه طفل بعد اليوم . قالت تخاطب نفسها :

_ غدًا .. أذهب عند «أم الشيبة» عندها يكون الحل .. والدواء .

* * *

(١) الدَّوة : منقل الفحم .

⁽٢) خالق : أم الزوج في منطقة الحليج تدعى خالة .

⁽٣) الجاثوم: الكابوس.

⁽٤) حلتيت ، ديرم ، علك : أشياء تستخدم قديمًا .

⁽٥) حسو: دواء خاص للنفساء.

⁽٦) عصيدة : طعام يصنع خصيصًا للمرأة النفساء وكذلك «القبّوط» ونكثر فيهما الحلبة .

الكبسة : هي الهجمة فجأة .. و «المكابيس» الذين يكثرون كبس بيوت الناس . و «المكبس» من يقتحم

الناس «فيكبسهم » .

عن كتاب: مع ذكرياتنا الكويتية: المؤلف: أيوب حسين.

الشمس وضحاها ..

سبق ذهنى جسدى إلى هناك .. شوق عارم أحاطنى وضيّق على . كنت قد اعتقدت بأن العاطفة التى بيننا قد اهترأت .. وأن ذلك الهجر الطويل الذى فرضه على قد وأد كل عاطفة ممكنة .. لكننى فى اللحظة التى فكرت فيها أن أور أن أهرب حاملة كل الشجن . أن أحرث كل التراكبات المزروعة حول أيامى ، المحيطة بحياتى كأشجار غابات .. جافة تخدشنى أفرعها .. وتزوينى سيقانها تحت أكوام الأوراق المتساقطة . اليوم ... سأفرغ الشحنة .. سأجعل عواطفى المخبوءة تحت جلدى تنطلق .. سأتمرد على الركود والبلادة .. سأمسح الوجع الذى استفحل دون رحمة .. سأهب كشرارة تعرف أين تسقط أين تضىء .. هناك .. ذهنى يسبق جسدى .. أتبعه آكل المسافات .. قدماى طائرتان .. ولى أجنحة قوية ودون أن أدرى كيف وصلت .. وجدتنى أمام الباب المهجور .

أولجت المفتاح بثقب الباب .. لم أجد صعوبة فى ذلك رغم أن الأشياء إن هُجِرَتْ تصدأ .. كأن الثقب ولهان .. محتاجًا لعناق .. منتظرًا للحظة كهذه ، حين لويت المفتاح أصدر أنينًا كأنه يستغيث .. كأنه يتألم .. كأنه يهمس : إننى

عاتب عليك ... لقد هجرتني طويلاً .

حين دلفت بوجهى كان الظلام يحيط بالمكان .. في الحارج شمس تسبّح الله .. وتضيء .. وهنا .. الظلام محدّق بإصرار .. يدى تتحسس مكان النور .. تلقاه كأنه ينتظر .. فجأة إ شع الضياء .. فاحت رائحة الأشياء عطور عشق قديم ، وذكريات مبعثرة .. وتواريخ مدوّنة على كل وجه .. روائح ألم قديم عشته .. تحسسته داخل صدرى .. وتحت جلدى .. ألم أحببته ، وأحبه .. جثت لأجل أن أجدد ولائي له .. استنجد به أن يعود .. ويلا صقني ليُحرك جثت لأجل أن أجدد ولائي له .. استنجد به أن يعود .. ويلا صقني ليُحرك البركة الآسنة ، لأ عرف طعم اللحظة التي تنخر في لحمى .. وتنطلق بعد ذلك إيجاءات وحركات .. وتعابير .

ارتميت على الأريكة التى لا تزال تحمل رائحتى منذ آخر مرة ، احتوتنى .. حضن أمى أريكتى .. تنعش مفاصلى .. أسترخى عليها .. أبللها بعرق .. وأريح رأسى .. أترك الحرية لعينى تدوران .. تمارسان هواية السفر هنا .. وهناك .. تطلعت إلى الحوائط تبتسم .. كلها تبتسم .. فجأة نبتت لها عيون ، وثغور .. وأسنان .. وآذان مترقبة .. وأذرع تمتد .. تعانقنى .. ذراع يرمينى بعد إفراز شوقه للراع .. وصدر يروينى ثم يهدينى لصدر .. الحوائط لا مكان فارغا فيها .. كل الحرام .. وذكرياتى .. حكاياتى الطفلة التافهة .. الجادة .. كلها عليها .. وأوجه كثيرة .. يتلاعب فوقها الضوء . بعضها يحمل فرحه .. وبعضها مكتب وأوجه كثيرة .. يتلاعب فوقها الضوء . بعضها يحمل فرحه .. وبعضها مكتب لا يزال تحت وطأة الحزن .. وجه أمى الذى لم يعش طويلاً .. وجه جلتى التى كانت حانية .. ووجه ريما الطفلة التى كانت ترتاح على ركبتى في طريق العودة من المدرسة .. كانت السيارة تضيق بنا .. وببنات الجيران اللآتى كنا نصطحبهن معنا لنوصلهن إلى بيوتهن .

وجه ريما وحده ظل فى ذاكرتى .. كنت أيامها بعد صغيرة لكن حلمى ظل يتلاعب بالمرج المتفتح .. حين أكبر وأتزوج .. سأنجب طفلة مثل ريما .. فشبهها .. وسأسميها باسمها . وريما اختفت فجأة ! غادرت وأهلها إلى بلدة أخرى .. وظل وجهها موشومًا فى ذهنى .. هو ذا .. أمامى الآن .. يالوعة الذكرى ... وجهها أيضًا يتسم .. يحضن وجهى كأنه يرحب به وكل شىء على الحوافظ مما فاضت به روحى من معان . وبكل ما جادت به ريشتى من الحوافظ مما فاضت به روحى من معان . وبكل ما جادت به ريشتى من لسات .. كله يبتسم يدعونى أن أتحرك .. أن أمنح خيالى أجازة .. وأسوح فى بحر واسع ألتقط منه .. وأرسم ... أسجل كل الأحداث التى مرت طيلة السنوات التى هجرت فيها مرسمى .. أضيف لتاريخى القديم تواريخ وأشكالاً .. هو ذا بيتنا . القديم ـ قلعة زندا ـ ذلك هو الشباك الوحيد الصغير المطل إلى الشارع .. كان ذات يوم نافذة الجنة التى رأيت فيها وجه كريم .. فى تلك القلعة الصلبة .. عرف قلبى الحب .. وسجل كل لحظاته هنا .

تولد الذكريات .. أرتعش .. في مقعدى ظللت مسترخية . شبه صداع بدأ يجبو من أسفل الرأس .. يتسرب شيئًا فشيئًا .. الوحدة المحيطة بي لها صوت .. أسمعه أنتشى قليلاً .. هذه الوحدة ملاذى .. إنها ترحب بي .. فلم لا أستغلها .. أن أفعل شيئًا .. قفزت .. سحبت فرشاتى .. ووعاء الألوان .. استعرضت اللوحات المعلقة على الجدران .. أين أجد مكانًا لأمارس عليه رغبتى ؟؟ .. عيناى اصطدمتا بوجه العجوز .. وجه رأيته يومًا ما عند باب الجامع ، كنتُ أحمل «روبيتى» اليتيمة هارعة إلى ذكان السيد لشراء بعض الحاجات الخفيفة .. لمحتها عند حائط المسجد متكومة . عيناها البارزتا الجفون وماؤهًا الأزرق الذى أعلن وفاة الشباب فيها أخافتانى ، يدها تشد على فها بطرف

ع امرا المنتقة المستقد على المستقد على المنافع الأورد الامن

عباءتها الممزقة .. حين قدمت لها الروبية وسحبت يدها بان فمها الأدرد إلا من نابين صفراوين . ولسان أحمر عريض .. نظرت إلى الروبية .. تحسستها ثم ألقت بها وصرحت في وجهى :

ـ تسخرين مني . . تعطيني حديدة .

هلع قلىي .. ابتعدت بعد أن انتشلت الروبية التي انغرس نصفها في التراب . هرولت مبتعدة ووجهها قد حط في رأسي .. دك نفسه بعنف واستقر رغم كل محاولاتي أن ألفظه .. كنت أخشى أن يزورني في الليل ويفسد على راحتي .. لكنه ظل حيا .. ولم أتخلص منه إلاّ حين قذفته ريشتي إلى اللوحة .. وجه أكرهه .. لذلك أمسكت باللوحة التي تحمله .. أنزلتها إلى الأرض ، علقت لوحة خشبية . . جهزت الألوان . . أي لون ؟؟؟ في الخارج . ينتشر الضحي . . وشمس الضحى جميلة . لا هي نار موقدة .. ولا لوح ثلج .. لا هي قاسية .. ولا حانية كل الحنور. لا هي غاضية .. ولا مبتسمة .. شمس لا تعرف الكدر ولا اليأس عروس تجمع حولها الوالهات إليها . إلى ـ شاى الضحى ــ جلسات المودة ، والهرب من متاعب كثيرة .. حلقات .. وأحاديث يصير فيها الضحي كأمسية سمر . . والضحكات ثغور نجوم وابتسامات قمر . . ضوء شمس الضحى يتسرب إلى روحي المظلمة .. إلى أزقتها الموحشة .. اللون الأبيض . هكذا قررت ... ومسحت على وجه اللوحة . صار الفضاء أمامي ناصعًا بلون قلب مولود لم تصفعه الأيام .. شيء من الأزرق الفاتح .. مسحة قليلة .. وشمس الضحى تتربع في قلب النهار .. أبتعد .. أتأمل اللوحة .. كأن الشمس فيها ترقص .. اللوحة كلها تتحرك بين يدى وأنا أعود إليها أفرغ لمسات ولهي وعشق

عليها. ينتقل صفاؤها إلىّ. أحسه يطحن أطنان العذاب التي حملتها معي وأتيت هاربة من لحظة جداله المر.

- _ أين ستذهبين ؟؟
- .. صديقة عزمتني على «شاى الضحى».
- _ تقصدين شاى النميمة والنقد اللاذع.
 - ـ سَمّه كما تشاء.
 - ـ لكنك تكرهين إضاعة الوقت !
- ـ لقد ضاع عمرى .. ما يهمني لو ضاع الوقت ؟؟

عيناه انغرزتا فى وجهى . تتساويان وعينى نمر يلهث وراء فريسة .. وأنا الفريسة التي وافتها أنفاسها أخيرًا .. وشجاعتها لتقرر أن تبدأ من جديد ..

- تتحرك .. تخرج .. لكن صوته الكالح شق أذنى :
 - _ إذا طلبت منك ألا تخرجي ...
 - ـ سأرفض طلبك .
 - ـ وإن رجوتك ؟؟
 - ـ سأهمل الرجاء ..
 - _ وإن أمرتك ...
 - سأعصى الأمر ...
 - _ وإن استخدمت سلطتي عليك ؟
 - ـ سألعن سلطتك .. وسأكسر قيودى .
 - ۔ تتحدیننی ا
 - ـ بل أتحدى ضعني .. لقد مللت .. لقد اكتفيت .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فاض على وجهه استغراب .. هو لا يصلق أن الفريسة التى فاضت روحها منذ سنوات طويلة تعود لها الروح .. أنا نفسى لم أكن أصلق . كيف وُلدَ هذا التحدى بداخلى ؟ كيف نما دون أن أشعر به .. وكيف تؤاتيه الشجاعة أن يتحرك معى .. بهذا العنف ، يستفزنى فأهاجمه وكأننى صرت الحيوان الكاسر ، وصار هو الأرنب المرتجف .

- لو خرجت تكونين طالقًا بالثلاث.
 - ـ آه کم تمنیت أن تطلق روحی .
 - ـ أو .. أقتلك

استدرت إليه بكل القرف الذي أحسه. خاطبته:

- هل نظن أنك بعد لم تفعل ؟؟ لقد قتلت الفرح بداخلى ! عرّبت أشجارى الحضراء .. حوّلت زمنى خريفًا دامم الصفرة .. حرمت وجه النهار أن يصافح وجهى .. وشمس الضحى أن تدفئ أطراف .. سأخرج .. لن يردنى اليوم شيء .. لن أهم لما سيثار ويقال .. لقد اكتفيت .

لم ألو على شيء . . كان بداخلى سعادة ولدت ليلة البارحة حين تهادى صوته المغترب منذ زمن . . استيقظ النوم فى كيانى . . كريم يعود فى الوقت المناسب . . كأنه يطرق باب القلعة التى صدأ كل شيء فيها . . بما فى ذلك قلبى .

كيف جاء ؟؟ ولماذا جاء ؟؟ كيف نبع صوته فجأة يتحدى كل الركود كأنه يلتى بالحجر الثقيل فى بحيرتى الراكدة فيتناثر ماؤها كأنه يقذف سهمًا إلى قلبى المتخشب آمرًا إياه أن يصرخ .. أن يتمرد .. أن يرقص .. أن يطمح إلى لحظة يتكسّر فيها جليده .

فكرت ليلة البارحة : هل أبدأ من جديد ؟؟ هل أكسر قيودى التي تورمت منهاكل السنوات الماضيات ؟ ! منذ تركت بيت أبى _ قلعة زندا _ متصورة أن لا قلاع غيرها . . واخترت أن أوافق أبى الذى قال مواسيًا :

- هو كبير في السن . لكن «الشايب» بدلّل .

ارتضیت أن أخرج من القلعة .. ماكان يهمنى إن كان عجوزًا يدلل .. أو شابًا يعلل قلبى .. كنت أريد أن أجرب نوعًا من الحرية .. بعد أن حرمتنى حصون القلعة من وجه كريم .. يوم عرف أبى أن النافلة الوحيدة قد صارت تأتى منها نسامم الحب .. أتسلق السلم .. أطل منها أتحاور مع كريم في عزّ القيلولة .. أهديه رسائلى .. ويهدينى وسائله .. ومنذ عرف والدى . قرر أن القيلولة .. أهديه رسائلى .. ويهدينى وسائله .. ومنذ عرف والدى . قرر أن يكل سجنى .. أن يتخلص منى .. أن يهدينى بعقد زواج إلى رجل يكبرنى .. وله أبناء بعمرى .. وقد ودعت أمهم الحياة فى كنفه .. ويتى هو رابضًا رغم أمراض العرين .

قلعة زندا أخرى زفنت إليها نفسى راضية .. وقد حسبت أن القلاع كلها قد اندثرت ! هبكذا كان على أن أبدأ .. أحمل موهبتى .. ألوانى ريشاتى .. وأعلن له بكل الذل :

- حل أستطيع ممارسة عشتى ؟؟
 وبشفتين لزجتين قرر كأنه بمنحنى صك السعادة :
 - ـ تستطيعين . . ولكن ! ! عقدة حسيتها لن تفك . . لكنه تابع :
 - _ رائحة الألوان .. تزعجني ..

- أردت أن أثير شفقته:
- ـ سَأْحَسَ بِالضَّيْقِ .. وقد تعودت أن هن كفّه المحقّد :
- _ طيب .. في مكان آخر سأجهز لك مرسمًا .
- في تلك اللحظة فقط شعرت نحوه بالحب .. تهلل وجهي :
 - _ أين ؟؟
- _ فى العارة فى منطقة سأخصص لك شقة لفوضاك .. ورواثح ألوانك .. و...

شكرته .. دفعت ثمن عطفه لحظة أحققها له .. لا أحس بها لكنه يحتاجها .. وجهّز لى المكان .. كنت أخرج إليه كل يوم .. أمارس أمومتى المفتقدة على اللوحات . وأستجمع الذكريات .. والوجوه ... أحقق لها عودة إلى الحياة .. بعد أن ربضت تحت تراب السنين .

ليلة البارحة كانت قاسية .. أحسست شيئًا كالملح يتراكم داخل حلق .. فقدت معه كل شهية لاستقبال الصباح .. وددت لو يمط الليل رداءه .. أن يبقى رغم وحشته أن يتركني في سبات . طويل .. ربما في الإغفاء بعض الراحة .. ف حضن الليل نستطيع أن نفكر .. أن نحلم .. أن نقرر دون أن تكون هناك يد تغتال أحلامنا .. أو تقنص قراراتنا .

صوت كريم الذى تهادى إلى سمعى بعد هذا الموات يدعونى للحياة .. يوحى لى بأن شيئًا ما عذبًا يتدفق إلى شرايينى .. إن دقته تبادر إلى جوف القلب .. تهزّه تبلّله بالندى .. أرتعش .. أحس أنه لا يزال ذلك الطفل الرقيق الذى تهز عرش صمته دغدغة .. إنه لا يزال برغم كل الثقل الموهن الرازح ، قادرًا على أن يرقص .. أن يميل .. أن يرتاح إذ يلمح عينًا تسلط عليه نظرة حانية أو ثغرًا

يشتهى أن يطبع قبلة ما على خدّه الأحمر! قلبى يستفيق .. منذ تهادى صوت كريم .. وكنت لا أصدق :

- _ أنت ا ؟
- _ نعم .. أنا ..
- _ ما الذي جاء بك ؟؟
- _ أشعر أنك بانتظار لحظة كهذه .

تصارعت هتافات بداخلى .. هل أقول نعم ! هل أرفض ! هل أنطلق إليه بكل الحاجة التى أحسها ؟ أم أبقى ذلك الشيء الواهن المعلق ما بين الحياة والموت ؟؟ هل أجد ميلادى ؟ أم أفتح قبرًا لسعادة تأتى وأنا فى أمس الحاجة إليها ! كيف جاء كريم .. ولماذا اتصل ؟ كان الزمن نهرًا يفصلنا .. نهرًا غرقت فيه مع رجل استكثر على الوعد .. وحرمنى بعد ذلك من مرسمى وسجن شهيتى للحياة داخل قلعته .. فنسيت أشكال الوجوه المعلقة .. وتضاريس البيوت القديمة .. حتى بيتنا الطيني القديم الذى كان قبل أن يبنى أبى القلعة . فهل أغامر ؟؟ ... هل أقلف بجسدى إلى النهر ؟؟ هل ألحق بكريم الذى أحس به شرارة الحياة وقد توقدت لتضيء ؟

ليلة بائسة مررت بها .. تقاذفتني النداءات والصراعات . على أن أقرر .. أن أختار .. أن أكون شجاعة ولو لمرّة واحدة : أن أرفض هذا التخثر الذي حاوط حياتي .. أن أرفض رجلاً لا يعطيني شيئًا .. يقتل كل رغباتي .. يحرمني صداح النهار .. ومتعة الليل .. يحرمني أن أكون امرأة .. لها الحق في أن تكون لها احيتاجات وأن تحقق تلك الاحتياجات .. على أن أحرك السكون أن لا أكون

مجرد حفيف ورقة فى قلعة ناثية ... بجب أن أكون شجرة أن أكون شمس ضحى مشرقة .

* * *

حين دخلت روحى عمق الليل .. ونامت .. لم أكن قد وصلت إلى قرار .. لكننى فى الصباح فوجئت بنفسى .. بالشجاعة التى حركتنى .. فرفضت أن أرضخ له .. أول ما فكرت به هو أن أهرب إلى مرسمى .. إلى ذكرياتى .. إلى الماضى الذى سجلته على الجدران التي تفرح بلقائى .. ثم أن أذهب إلى موعد كريم الذى حدده .. أن أرتمى على صدره .. أن أبكى ... أبكى ... وأعلن له :

- _ أحبك .. بكل العنف الذى يمزقنى ... أحبك .. بكل العذاب الذى أماتنى .. أحبك .. برغم نهر الزمن الفاصل . وبعد أن أسمع دقة قلبه . تعلن الفرح .. سأترك خيول الصمت تنطلق .. سأعلن له :
- _ نعم .. أنا امرأة وحيدة .. أنا امرأة تحتاج إليك .. تريدك .. تريدكل الحياة التي يمكن أن تفجرها حولها .. وبداخلها .. وبأعطافها الراقدة .. الموحشة .. نعم ياكريم أنا امرأة في الربح وحدى .. وأنت : أريدك الرجل ... البيت ... العشق الذي يرويني فقد جفت شرايبني .. تآكلت رغباتي .. وحدك أنت ستعيد كل شيء .

حين تركته قابعًا في الفراش . . تلجمه مفاجأة التمرد . . لم أحس بأى شعور بالذنب تجاهه . لقد أعطيته من عمرى ما يكني . . وأخذ من عمرى ما يزيد . .

وقبل فوات الأوان يجب أن أحتفل بميلاد شمس جديدة .

غُصْتُ فى ضوضاء النهار .. اننى أحسها لأول مرة .. وجئت إلى مرسمى .. أرسم شمس الضحى .. وأعلن لها أنها بداخلى تولد .. تنفجر .. وحين اكتملت أمامى نفضت الريشة .. آويتها قرب علبة الألوان .. ودعتُ كل الوجوه .. كل الجدران ..ودعت أريكتى الوحيدة .. أسلمتها رائحتى .. وخرجت .. أزف نفسى لموعد كريم .

نسبتُ أنى هجرت بيتى فى الصباح .. نسبت وجه زوجى المتكوم بعضه على بعض .. نسبت تهديده .. نسبت أن أسأل كريم إن كان قد عاد ليحقق أملاً خاب أبى .. وخبتُ .. وخاب زوجى أن يحققه لى ... كل ماكان يُهمنى أن أنطلق .. أن أحمل مفتاح مرسمى الذى حرمنى منه .. أن أدخل المفتاح المشتاق إلى الثقب المهجور ، وأتنفس رائحة ألوانى ... وأرسم شمسًا تشرق من جديد .. ثم أهرع إلى كريم .. أعيد الانتعاش إلى روحى التى وارى فرحها تحت الجروح والحرمان . أن أبداً من جديد . أترك للعشق أن يدخل من الأبواب المشرعة .. أن يعيدنى إلى ساحة الفرح .

فى صالة الفندق الكبيرة بحثت عنه .. قال إنه سيكون بانتظارى .. حدد لى ساعة معينة : انتهت إلى أننى ألغيت الزمن حين ارتميت فى أحضان المرسم .. نظرت إلى الساعة ... ياه .. موعدنا كان فى العاشرة .. الوقت الآن الواحدة والنصف ! كيف مضى الوقت ؟؟ .

* * *

تلفت .. جالت عيناى تستعرض الوجوه وجهًا وجهًا . لا ... لا وجه بين الوجوه هو وجه كريم .. لابد أن أسأل .

واقتربت من موظف الاستعلامات ؟ ابتسم .. لا أدرى لماذا ابتسم .. التفت وراءه .. يده على ذقته .. وهو يتابع أرقام الغرف .. عند الرقم ٥٠٣ كانت ورقة صغيرة ترقد مجانب المفتاح .. استلها بأنامل رفيعة قدمها لى :

- ـ انتظرك .. ثم ترك لك هذه الورقة .
 - ۔ أين ذهب ؟؟
- _ غادر إلى مقر عمله في لندن . كان قد جاء ليوم واحد !

شقنى سيف حاد .. ترنحت قدماى .. جف بحلق كل بلل . تهاويت على . أقرب مقعد .. فتحت الورقة .. لطمتنى الكلهات القليلة .. تبدو حانية .. صادقة .. كان يَودْ ... كان يَودْ ... كان يَودْ ... وأنا التى تأخرت ... أنا التى ذهبت لأرسم شمس الضحى المشرقة .. وشمس الفجر الذى تنفست فيه أخيرًا أنا التى انتظرها أخيرًا ليراها بعد تلك السنوات الطويلة .. ليعرف ظروفها ليضعها في قلبه .. الذى لا زال يحمل وجهها ويحفظ رسائلها أنا التى تمنى أن تهجركل شيء عداه .. وتأتيه بنفس كمية الشوق التى يحملها .. وأنا .. حملت نفسى إلى هناك وأضعت الفرصة .. خيبة جديدة تصفعنى في أول نهار تشرق فيه شجاعتى .

ثانیة .. عدت إلى مرسمی خائبة ... كل شیء معتم .. الوجوه علی الحوائط عمیاء .. بلا عیون .. جدعاء بلا آذان خرساء بلا ثغور ولا ألسنة .. ولا شیء يرحب بى .. تهاويت على المقعد الذى ودّع جسدى قبل زمن قصير . شعرت

وكأن دبابيس قد نبت فى جوفه .. تطلعت إلى اللوحة التى لا زال عرقها طريا .. أين الشمس التى رسمتها ! كان الضحى .. ذلك الفضاء الناصع قد ارتدى ثوب حداد ، والشمس صارت قرًا ذابلاً تتقاطر من وجهه دموع .. سالت .. وأغرقت اللوحة .

بدأ المكان يضيق .. يضيق .. أحس بأننى خيط .. رفيع .. تهزه ريح صَرْصَر .. وأمامى ثقب الإبرة إما أن أندفع إليه .. وأدخل .. أو .. أبقى هكذا معلقة فى الهواء .

هل أستطيع أن أبلل نفس وأنفذ من الثقب ؟ هل حقًا أنا قادرة على أن أحدّد معالم الطريق لأعود إلى الثقب وأدخل نفسي فيه ؟؟؟

لا الشمس وضحاها قادرتان على منح بصيص من النور .. ولا الشبابيك المغلقة المرتدية حزنها تسمح بخيط نور يقتحم المكان .

أغمض عيني ... بداخلها كان وجه العجوز الأدرد ... وكان وجه ريمًا ,

* * *

روبيتي : الروبية ــ العملة الكويتية القديمة ,



المدينة .. الحلم ..

انتهت رحلة السير، اللهاث، والتعب.. والآن.. انظر هناك.. ستبدأ رحلة اكتشاف لهاتين المدينتين المتنافرتين..

سَجُّل تاريخ البدء.

ذات يوم سجلت التاريخ الذى أحببتك فيه .. كم مضى من الأيام .. الشهور .. والسنوات ؟؟ لا تقلق فازلت أحبك .. وما أزال رفيقة الدّرب والرحلة .. أثق الآن أنك من يستحق أن يشاركني هذا السفر الطويل ومتعة الاكتشاف .

حين نعود .. سنحكى لناسنا أحلى القصص .. قد يصدقون .. ثم يحاولون الارتحال حيث رحلنا .. فالتجربة متعة .. هل تعرف ما الذي سيحدث بعدها ؟؟

لا تندهش. صدقني .. ستحدث الفُرقة .. سيتقاتلون . ما علينا الآن .. ها نحن نقترب .. انظر هناك .

المدينتان تلوحان ..

- _ هل أنت خائف؟
- ـ أجهل ماذا هناك . . والجهل أب للخوف .
- معى ، لا تخشى شيئًا .. سأسليك .. سأقدحُ زناد الذاكرة تنتفضُ سنوات الطفولة .. والصّبا التي أحسها مرّة .. كزخة الماء البارد حين تشتد حرارة العالم حولى .. فأستدرّها .. أتبلل بها .. وَمرَّه أحسها كالسوط تجلد ضلوعى .. تعذّبنى .. فأتمنى لو بُحتُ لها حتى للهواء .. وحين أهمُ بذلك .. أتراجع .. أخشى أن تفرَّ مع الربح الصارخة إذا انفلت من سجنها الدفىء .
 - ا أن تخاصم ذاكرتى ولا تعود ..
- هى فرصتى الآن وأنت معى .. أن أسجلها هنا .. عندك .. فهل تملك ذاكرة قويّة ؟؟ .
 - _ يشهدون لى بذلك.
- _ إذًا .. اتفقنا . لوفقدتني يومًا فاستخرج هذه الحكايات . حدّث الناس بها .. أحب أن يعرفوا كل شيء . انظر ..
 - _ ماذا هناك بالضبط ؟؟
- ـ ستعرف كل شيء .. هنا .. وهناك .. بعدها ستختار أين تنام .. وتبق .. وتعيش .. فلا تسأل قبل أن نخطو الخطوة الأولى .

* * *

رحين خَطَتُ قدماى خطوتهما الأولى .. دُستُ على موقد النار فى بيتنا الهادئ . فى ذلك الحي اللهى دفنوه الآن تحت هياكل الأبنية الحديثة المترفة . لقد قتلواكل ذكرياتنا .. وماضينا .. لم يتركوا لنا شيئًا .. نهبوا حكاياتنا المرشوشة

على الجدران .. وأحرقوا بقايا البخور الذى كان يفوح فى ليالى الأعراس .. والأعياد . دفنوا مواقدنا التى لم أكرهها حتى عندما أحرقت نارها قدمى الناعمتين .

يومها ربطت أمى قدمى بالحُرق البالية الملونة .. بضع فضلات من أقشة تخيطها للجيران والأحباب .

كانت على موعد لتقيس لأحداهن . . حملت «بقشة » الثياب ونظرت إلى وجهى . قالحت بحسرة :

- _ المسافة بعيدة ..
- ـ أبتى في البيت يا أمي ..
 - _ وحدك : لا ..
- . هلعت أمى .. ثم قالت مجزن :
 - _ سأضطر لحملك كل الطريق.

خيلً إلى أننى أحببتها كثيرًا تلك اللحظة . وأشفقت على جسدها النحيل من أن يحملني حتى وإن كنت طفلة تزحف نحو سنواتها الست .

- قلتُ لها :
- ــ دعيني أمشي . . لا يؤملني الحرق .
 - وكأنني سمعتها تهمس :
 - ـ بعض الألم يعيق الخطو.
 - وكأنني صرخت في داخلي :
- _ لا .. بل الألم يدفع إلى الجرى .. كلما دسنا على موضع الألم قتلناه .. ومات

الإحساس به ، فنمشى .. لا نكثرت .. وسأمشى هذا الطريق . لكنَّ كتف أمى حملنى .. وحين وصلنا أنزلتنى وقالت هامسة : _ أرجو ألاَّ يعوقك الله يومًا .

* * *

أنظر إليك الآن .. قدماى صلبتان .. أنت بانتظار الخطوة الأولى .. إلى المدينة الأولى .. ثم الثانية .. وأنت معى .. رضيت أن ترافقنى .. أن تحبنى .. لا يضيرك أن تجازف .. وتتسلى بالطبع .. سأَفُكُ عقدة لسانى .. قلت لك سأحدثك عن سنوات مرّت وسيكون الطريق أمامك قصيرًا .. ممتمًا .

هو ذا الطريق .. المدينتان تلوحان .. متناقضتين ، والخطوة الأولى .. كخطوة الصبا المنتعشة أيام الربيع .

* * *

«أيام الصبا أحببت لأول مرة . كنت بعد لا أعرف كيف أتعامل مع الرجل الذي أحبه .. نظرات .. خجل .. ثم نظرات .. وابتسام .. ثم نظرات .. ولقاء أصابع مرتجفة .. ثم نظرات ورسائل قصيرة ملونة أشترى ورقها من مصروف المدرسي وأدسها في يده كلما التقينا .. ثم نظرات .. وأمنيات تداعب القلب .. والجسد أن يرتمي في أحضان الحبيب ليدخل التجربة الأولى .. ويتعرف على الخب بشكله الآخر . لكن المستحيل كان .. أين نلتق ؟ وكيف ؟ ومتى ؟ وعيون الناس كلها تدّخر لحظاتها لترصد .

فشلت في أن أكون حبيبة كاملة .. والرجل يريد .. وأنا لا يهمني .. فالقلب

الصغير يحب مرات .. ومرات .. وحين يكبر يحب مرة واحدة فتكون التابوت الأمدى» .

- _ ما بالك تنظر إلى هكذا ؟؟
- _ تقولين أن الحب هو التابوت الأبدى!!
- _ أحببتك أنت .. تلك هى المرة النهائية .. أعنى .. أموت وأنا لك وحدك .. أنت الأبد بالنسبة لى .. هل غضبت ؟؟ .
 - ـ لا .. ولكن كانت تلزمك بعض النصائح وأنت صبية ..
- كانت أمى تفعل ذلك .. تلاك النصائح والتوجيهات تتراكم فى رأسى .. أكرهها .. أضيق بها .. وعندما كبرت اكتشفت أننى قد استفدت من تلال الحب التى كنت أتصورها تلال حصار لأهوائى ورغباتى وأمنياتى الخضراء .

فشلت فى أول حب .. عشت على أمل أن أحب للمرة الثانية ، الثالثة ، الرابعة ، حتى يجهز التابوت ..

_ مصرّة أنت على التابوت كأنك ميتة .

وأول مرة رأيت فيها ميتًا ممددًا على الخشبة المبللة بالماء .. كان ذلك حين عدت من المدرسة .. رأيت شارعنا يغص بالرجال .. وبالحزن .. وحين أردت أن أقطع الطريق إلى بيتنا نادى باسمى أحد الجيران :

_ اذهبي من الناحية الأخرى.

لكن الفضول دفعني إلى أن أسد أذنى .. مددت خطوى واقتربت .. فاجأتنى جثة جارنا على الحامل الحشي .. أصابتني زعدة ما صحوت منها إلاً حين

صفعنی كف الرجل الذی أمرنی بأن أبتعد .. صرخ فی وجهی :

الم أقل لك اذهبی من النّاحیة الأخری ، هیا إلی بیتكم . لكن القدم لم تحملنی .. والرعدة المسعورة انتهكت صمت كل شیء فی داخلی .. أشفق علی الرجل .. وحملنی .. لم أكن طفلة يومها .. فكان لذاك الحمل تأثیر علی جسد الصبیّة .. كانت للرجل رائحة غریبة .. لكنها ممتعة .. يومها ظللت أحلم برجل یحبنی .. ویحملنی .. وینتشلنی من أیة لحظة رهیبة . متمردة إلی

_ سأحملك .. وهيا .. لندخل إلى المدينتين .

حيث الأمان .. إلى مدينة تكون لى وحدى .

_ لا .. حملتنی کثیرًا .. واختملتنی .. أرید أن نخطو معًا .. خطوتك تتناغم مع خطوتی .. نمضی سویًا .

* * *

انظر ...

هى ذى المدينة الأولى .. هادئة .. موغلة فى أحلامها . تستطيع أن تخلع حداءك .. أن تمشى عارى القدمين فتلامس العشب الناعم النظيف والتربة الرطبة .. الأرض محناة بحنان أخضر .. راعتها تشبه رائحة اللبن أول فورانه .. ف سمائها ترفرف حامم بيضاء كرايات مولودة للتوفى قلب غيمة .. تستطيع أن تنام عاريًا رغم برودتها .. لن يلسعك بردها .. تدفئك أحلامك . وفى الصباح تستيقط على هديل الحام يرفرف مسالمًا حُرَّا مغرورًا بالفضاء النظيف .

والآن .. انظر إلى الناحية الأخرى .. ماذا ترى ؟؟

- ــ الله .. تلك مدينة راثعة!!
- بالضبط .. إنها تنبت كعشبة أبديّة .. تنتفض كامرأة فى لحظة نشوتها ... لا تقل جالاً عن الأخرى .. لكنها
- أجل .. تختلف .. تلك هادئة وديعة .. لكن يبدو أنها مملّة كذلك .. أما هذه .. يفوح صراخها .. صخبها .. تبدو مثيرة تستنفر الفضول .
- ـ كأنها مدينة من الورق .. هشّة .. يخيل إلىّ أنني لو لمستها بيديّ لتناثرت .
- ـ لكنها مغرية .. أراها مكتظة .. صارخة .. يبدو أنها لا تعرف النوم ...
 - ـ ولا الراحة أيضًا ..
 - _ لماذا لا ندخل تلك المدينة الصاخبة أولاً ؟؟
 - ... هل تحب أن تموت قبل أن ترى الأخرى ؟
 - ـ هل هذا تخويف ا أم حقيقة ؟؟
- الموت هناك يترصّد البشر! ولو حدث وَمُتَّ فن سيحمل جثتك؟ من سيسترها؟ من سيصّل عليها؟؟
 - الناس!
- الناس هناك لا يعبأون إلا بأنفسهم .. والموت يأتى من رصاصته ! والجبث تغطى الأرصفة .
- ــ لكنها مغرية . . وتلك المدينة تبدو موحشة . . صامتة . . لا أرى فرصة لانبثاق النور منها .
- نستطيع أن نخلق النور .. أن نضىء شمعة .. تلك مدينة تعودت أن تهدأ .. تنام .. تحلم .. مدينة قوية طبيعيّة عروقها فى الأرض .. ورأسها نحو السماء .. تلك مدينة صلبة منذ قررت أن تكون كذلك .

- _ إذن .. تفضلين أن ندخلها أولاً .
- بالطبع .. وسترى الأخرى بعد ذلك وإن رَحَمَتُكَ السماء ولم تَمُتْ .. ستختار أبن تبدأ ثانية .
 - ــ هل نحتاج لشيء معنا ؟ أقصد .. سلاحًا .. مؤونة ؟
- یا عزیزی .. هنا .. لا أحد یجوع .. الكل یجد له طعامًا .. إنهم لا يتقاتلون
 لأجل اللقمة .. لأنها تأتى وتوزع بالعدل .
 - _ خيمة نتستر تحنها!
 - ـ ستجد الأمان أينا حلَّلْت .. حتى لو نمتَ تحت ظل شجرة .
 - ـ شيء نتسلي به
- هذه المدينة مليئة بالألعاب المسلية ... وفيها أطفال سعداء ... سنلهو معهم ستتنسم من ابتساماتهم عطر السعادة .. تحسهم بلاعاهات .. بلا عقد ... فرحين يعيشون في سلام دائم .
 - هيا .. اقتربنا .. الحشائش تلتمع .. تغريك بالنوم .
 - _ ولكن ! هذا الصخب الآتي من هناك ..
- صخب المدينة الأخرى .. لا تخف .. سيقلقك لفترة صوت الهرج والرقص عنتلطًا بأصوات الجوع .. والرصاص .
- انظر.. هناك حديقة من الرمل الناعم .. مثلها كثير.. إنها متاريس تحمى الأطفال .. وتمنع الشر.. فلا تخشى أن تصيبك رصاصة قناص .. الرصاص لا يخترق الرمل .. المدينة محصنة .. أهلها لا يخيفهم الرصاص .. وروائح ولا ألسنة النيران المندلعة .. تمامًا كما لا تغريهم صيحات الرقص .. وروائح البضائع النادرة :

rted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- ـ أنت تطمئنني ..
- ـ وستنام هنا .. مطمئنا .

* * *

جسدى يتشرب برودة الأرض .. عيناى تجولان فى عالم أخضر .. الشجرة الباسقة تمنحنى شيئًا من الأمان ونحن نسترخي عند ساقها العريض .

- ترى ! كم من السنوات عاشت هذه البقعة الحضراء ، وهذه الشجرة ! كم من الأطفال عبثوا سعداء تحت ظلالها ؟؟
- إذا كان أطفال المدينة آمنين كها تقولين! فآلاف منهم رتعوا تحت ظل
 الشجرة .

سقطت ورقة على وجهى .. سحبتها .. تأملتها . خطوطها منسقّة .

- _ انظر كيف خلق الله هذه الورقة كيف نسقها وبعث بها الحياة .
 - ـ الأوراق تموت حين تسقط .

«كنت أعيد الحياة للوريقات المتساقطة .. يوم أحببت رجلاً كنت أجمع أوراق الشجر فى كل مكان زرته .. وأكتب عليها اسمه .. وتواريخ لقاءاتنا .. وأضعها فى كتاب حتى تجف .. تموت عروقها .. لكن لونها الأخضر يبق .. ويبقى الاسم وشمًا دائمًا . »

- _ أين تلك الأوراق الآن ؟؟
- ـ يوم أحببتك أحرقت كل الأوراق القديمة .
- _ كان من الممكن أن تنسّقي تلك الأوراق كذكرى .. كنوع من الديكور ..

- _ ليس سهلاً أن تنسق الأوراق الجافة .
- _ وكذلك البشر، كُلّ له طبعه .. ومزاجه .. وأحلامه .
- _ آه .. لو نستقوا صفوفهم حقًا .. لغمر السلام أنحاء الأرض .. انظر إلى هذه الشجرة .
- ـ ساق ضخمة تحمل كل تلك الأوراق . ربما آلافًا . ملايين . من يدرى . هل نعدها ؟
- _ إن ما يدهشنى حقًا .. ليس عددها .. بل تآلفها .. كل هذه الأوراق تستمد الغذاء والقوة من هذه الساق ، وأتساءل .. لماذا لا تجمع هذا العالم ساق واحدة !
 - _ أمنية .. بعيدة المنال .. ها أنت ترين مدينتين تختلفان :
 - هدوه .. صخب .. سلام .. حروب .. ومن يدري ! لم تحدثيني بعد عن تلك المدينة .
 - _ ستدخلها . . وترى بنفسك .
 - _ أحب أن أسمع .
 - _ أخشى أن تغريك .. فتفر الآن من قربي باحثًا عن المتع .
 - _ إلى هذه الدرجة ؟؟
- _ أجل.. هنا. كما قلت لك.. لو نمت عاريًا فستدفتك أحلامك. ولكن هناك.. لابد أن تلبس الحرير.. وتتعطر.. المدينة الكرنفالية ترفض من لا يساير أهواءها..
 - _ أليس الإنسان حرًا يلبس ما يشاء ؟؟
 - _ لا ! أنت مقيد .. عليك أن تحب أشياء كثيرة تكرهها .

- _ أنا لا أحب إلا النساء.
- _ لا عجب في ذلك ... تلك مدينة الخمر .. والنساء .. والرصاص ..
 - ـ ونساؤها . . هل لهن جال خاص ؟؟
- _ جميلات ! لكنهن غادرات .. قد تكون المرأة خنجرًا يندس في خاصرتك لحظة انتشائك . وتتصور أن في داخلك كنزًا .
 - ـ والخمر ! إنها تفرج الكرب أحيانًا ..
- _ ستشربها .. وحين تفيق ستفاجأ بأن أصابعك قد سرقت .. أو ... ربما لا تفيق .
- هناك ينفجر نهر الزمن في لحظة .. فينزف دمًا أحمر! وتنسى المرأة .. والخمر ... والرقصة اللذيذة .. والحرائر.
 - _ أحمل سلاحًا .
- لن يفيد! يجب أن يكون لك ناب .. ومخلب .. وقبضتة مصارع تسددها إلى الحطر الذى يأتي فجائيًا .. أما السلاح فأمرُه سهل .. فهناك يقتات تجار الأسلحة من صراع البشر .. كلما تهاوت جثة صنعوا رصاصة .. وكلما احترقت مدينة .. صنعوا سلاحًا .
- _ كلما أغرتنى بهجة تلك المدينة .. أرعدتنى كلماتك عنها ، هل تخشين أن أذهب وتعجبنى .. وأبقى .. هل تغارين من نسائها ؟
 - ــ لم تر بعد نساء هذه المدينة إنهن أجمل .. وأروع ..
 - _ ألا تخشين منهن ؟؟
 - _ النساء هنا مختلفات يعشقن ولا يقتلن.

- - ـ يبدو أنني لن أكمل الرحلة .. غدًا نعود من حيث أتينا .
 - لا.. أريدك أن تذهب إلى تلك المدينة .. لابد أن تدخلها . تراها عن
 كثب . وعليك أن تختار .. أن تجرّب .

* * *

كانت التجربة قاسية إ

تصلبت عيناى المترعتان بأحزان الدنيا في عينيه .. أستجلى منها نظرة رحمة ! بادرة تعيد إلى أوصالى وزنها المتهاوى :

_ أبى .. لا تفعل ! لا تترك البيت ...

شد على يدى .. اهتززت كغصن .. تناثرت شجاعتى ..

تهاویت . . للمت قدمیه . . رکانی وزمجّر :

_ وسآخلك معى !

ما أقسّاه []

إذا كان للزمن وجه أقسى من الحجر .. فقد كان وجه أبى لحظتها أقسى من الزمن .. أقسى من سيف يبترنى .. يفصلنى عن حنان أمى .. عن كتفها الذي حملنى جريحة وعلمنى المشى بعد ذلك .

وزحفت إلى حضن أمى .. كان دافئًا رغم البرودة التي تناوبت رعشاتها عليها ، وكان الحزن في وجهها جرحًا طريًا ينز دممًا .. ويتقاطر دمًا .

ومن بين شفتين صفراوين .. انتحرت فيهما الدماء قالت :

ـ كبرت البنت ... هي التي ستختار ..

وهدر صوته حادًا بتَّارًا لكل ما قد يأتى من ردود حتى وإنكانت متوسلة .. متهاوية بذَّلها :

لن تختار .. لقد اخترت أنا .. وسآخذها معى .
 ورابطت فى حضن أمى .. كم من الأيام ! والأسابيع ! والشهور !
 لا أدرى كم انتظرت حتى جاءت لحظة الاختيار . وصوت القاضى يتلاطم
 فى بحر الصمت قبل أن يصل إلى أذنى :

_ تريدين أمك .. أم أباك ؟؟

واريت وجهى عن أبى المترصد ردّى .. وعن وجه أمى القانع كأنه يثق بأن البذرة لن تختار إلاّ أرض الحير التي نبتت منها .

وأنا

تضطرب الأشياء داخل نفسى وعلى أن أختار .. من هنا .. من شفتى المبللتين بدمع أمى المالح التى رقدتُ فى حضنها فترة الانتظار . يجب أن يصدر الحكم .

لحظة الفصل .. الاختيار .. الحكم الأحير ... أنا التي سأنطق به . كانت التجربة صعبة .

أن تختار بين أرضين رغم قناعتك بالفرق الشاسع بينها . أرضين لمست منذ وعيت مداهما الممتد .. تلمست تربتها اكتشفت كيف تكون التربة الجافة التى تتصارع ديدانها لتغتال أشجارها المشنوقة .. فلا ينسدل منها فرع ليظلل قيظ الطفولة .. وتربة تتندى بفيضها الدائم .. بخيرها الذى ينبع صافيًا كلما انهالت عليها شهوات السماء .

اللحظة .. رغم قسوتها حاسمة .. هكذا يجب أن تكون .. مرة في العمر تختار الطريق بعد التجربة فتعتاد المشي في الدروب بلا تردد

* * *

وأنت ا

عليك أن تختار..

_ أختارك أنت .

- وأنا اخترتك .. آلاف الحصارات كانت بينى وبينك .. بيننا .. وبين الغد .. زمن يرتحل .. وزمن يليه ... وفى الأفق كانت أزمان نجهلها .. لكنّا تمنيناها .. قرصنا ليالينا .. همزّناها كما تهمزّ الحيل لتجرى .. تسابق النهار ... والنهار ... والنهار ...

_ حتى أشرق النهار .

غدًا .. يشرق أيضًا .. ستزور المدينة الأخرى ..
 سأنتظ قرارك .. حتى تلك اللحظة سأبق أحبك .

* * *

واجمًا تأتى ..

صامتًا تعود ...

خطاك ثقيلة .. وجهك أصفر ينبئ عن أرق ٍ لازمك ، وضيق بات في صدرك .

وعيناي !

علامنا سؤال .. حائرتين .. هل أسألك ؟؟

لكن حصارًا كالريح يداهمني .. يلف بي .. تأتي الصور .. تدور ... قدماى المحروقتان .. الثقيلتان .. وجه أبي لحظة اختيارى تجمد .. تقلّص .. فَقَدَ آخر نقطة دم .. حبن أعلنت : أريد أمي .. وجه يحترق كتلك الأوراق التي أحرقتها .. وجه الميت المصفر المسجى على نعشه ! وأوراق الشجرة الكمرة .

الحصار يدور .. أدور .. وأنت تقترب .. أحسك وكأنك تهرب فى كل العالم لتندس فى صدرى .. تشهق تبكى .. يغسل الدمع صور البشاعة التى علقت فى بؤبؤ عينيك .. وقلق الليل الذى عانيت .

تأتى .. شفتين جافتين تعلنان بصدق .. هنا .. صدرك مدينتى .. وكل المدن هذه ليست لنا ..

أفتح ذراعى .. أحضنك .. أشم عطر شعرك .. أحسسه ، عطر مدينتنا المنتظرة .. أحس أن الوطن أنت .. وأنت المدن .. وأن التجربة الوحيدة الناجحة هي أنت .. يدك تحضن يدى .. عيناك تقولان :

_ تلك مدينة كريهة ..

أسبل جفنى .. أوافقك .. أتلفت إلى المساحات الحضراء التى حولنا .. إلى المشجرة ذات الساق الضخمة .. أوراقها .. الكثيرة .. كأننى أسألك .. وهذه ؟؟

يخرج صوتك الحبيس:

_ علمتنا المدن .. ونستطيع أن نزرع شجرة .. بل أشجارا .

ــ إذن .. تقرر أن نعود ..

_ أجل .. هناك سنحلَّث ناسَّنَا . وقد نستطيع أن نبني مدينتنا من جديد .



verted by Liff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا يصلح للحب

عند إشارة المرور التقت نظرتانا .. كانت له عينان جميلتان ، عينا صقر ، قويتا النظرة ، عينان اعتادتا التفرس والتحديق في موقع الفريسة .

حدجنی بنظرة حمّلها كل ودّه .. أرفقها بابتسامة أحسست بعدوبتها تتقاطر. تود لو تبلل وجهی ، لكننی خیبت أملها .. وأمله ، حدجته بنظرة بصقت معها كل احتقاری .

من يظن نفسه ؟؟

هل يتصور أن عينيه تغريان امرأة مثلى تحررت منذ شهور فقط من سجن تجربة مريرة , وقبل خمسة أيام فقط استطاعت أن تتالك أعصابها لتقود سيارتها وكان كل خوفها أن يتبعها ذلك الرجل الذى انفصلت عنه فيطحنها انتقامًا ويساويها بالرصيف .

* * *

حين نطق القاضي حكمه صرخ :

ـ لا .. أنا لن أطلق وحكمك باطل.

قال القاضي ببرود أعصاب حَسَدْتهُ عليه:

_ انتهى الأمر .. القضاء خير فاصل بينكما .

قال بكل جرأة ووقاحة :

_ أنا أحيها !

التفت نحوه ، شحذت بعض الشجاعة وأنا في حضرة القاضي وصرخت :

ـ ولكنى لا أحبك . ولم أحبك يومًا .

قال :

_ هذا ليس كافيًا ليتم الطلاق.

نقر القاضي بيده على الطاولة :

_ اسمع یا هذا . هناك سبب جوهری ، أنت تعرفه ، من حق المرأة أن وقاطع القاضي ...

تريد أطفالاً .

: قلت

... نعم أريد . خمس سنوات كافية . وأنا امرأة من حقى أن أحضن وجه طفل .
 لو كان قد جاء لأنسانى المتاعب الأخرى التى عشتها معك .

the the the

كان يفرغ عقده كالسم فتسرى فى بدنى ، كنت أتآكل وأنا أرى وجوه الأطفال فى كل مكان ، وأحسد الأمهات ، وأشفق عليهن من حسدى ماذنبهن إذا كان قدرى وأنا العاشقة لعيون الأطفال أن أحرم منهم ؟

وكان حين يلمح نظراتى المشحونة حبًا واشتهاء لوجوه الأطفال يثور، وأحسه يطحن غيظه تحت أسنانه . يزفر وتصير له نظرة حمراء يغرسها كالناب ف لحمى فأخاف . وأحوّل نظرتى وأستجدى رضاه . كنت أعلم أنه فى البيت سيحول الأمر إلى جريمة ارتكبتها ولن يتردد فى ضربى أو شد شعرى . وكنت فى كل مرة أقرر أن أقصه حتى لا يجد ما يعطيه الفرصة لإذلالى . ولكن لا أدرى لماذا كنت لا أفعل !

وذات يوم قررت أن أكسر قيدى . صرخت فيه :

- _ طلقني .
 - قال :
- _ لا تحلمي .
 - قلت :
- ـ سأرفع قضية .
- قال كأنه يذكرني بأنه رجل:
- _ سأماطل ... سأتهرب ، سأجعل قدميك تحفيان وأنت تتمرغين في أحلامك بين أروقة المحاكم .
 - حقدت عليه:

- هل تقبل امرأة تكرهك ، ترفضك ؟
 قال يغرور :
- لا يجب أن ترفضيني أنت. أنا الرجل. وأنا الذي أقرر، أبقيك.. أو
 أرفضك.
 - وكرامتك ؟؟
- هو ذا معنى الكرامة . يجب ألا ترفضنى امرأة . أنتن كالأحذية نستبدلها متى شئنا .

* * *

شهور طویلة مرت .

ليال قاسية باردة تعصف بى ، تحولنى مرة إلى قطة وديعة فأحاوره بلطف . . وأرجوه أن يطلق سراحى ، ومرات أنقلب إلى نمرة مفترسة أغرس أظافرى فى لحم المخدة وأصرخ . . لكنه ببرود يلتهم حوارى ، ويشمت بضعنى . يستبيح تعذيبى وكأنها الوسيلة الوحيدة التى تحرره من عقدته .

أخيرًا لجأت إلى المحكمة ، فهزأ بي ... لكن المحامي طمأنني :

- هو يريد إحباطك ، لكنك ستكسبين القضية .
 - وصرخ هو فی وجهی :
 - ستطعنين في رجولتي حين تعلنين أني عقيم !
 قلت له :
- تصور لو كنت مكانى .. ماذا كنت ستفعل ؟؟
 قبل أن ينتفخ كالديك ويفتح فمه كنت أكمل :

_ ستتزوج امرأة ثانية لتحقق مرادك.

ولطف من لهجته :

_ ولكنى سأبقى عليك .

_ شفقة وحسنة منك .. أنا لا أستطيع أن أبقى عليك . وليس مسموحًا لى بزواج ثان .. أية مصيبة قيدتنا بهذا الشكل ! لماذا ندفع النفن ؟؟

* * *

دفعت كثيرًا للمحامى .. دفعت من أعصابى ، من راحتى ، وحين أعلن القاضى الحكم نسيت كل شىء ، شعرت بأننى ولدت عصفورة وعلى أن أحلق بعيدًا . لكنه ركض خلفى ، كان صوته عاليًا يهدد :

ـ سأقتلك .. سأهرسك بسيارتي . سأحرمك الحياة .

واختفیت! شهورًا وشهورًا أخشى أن ینفذ حکمه وأخسر عمری بعد أن تصورت بأنه بدا بعیدًا عن رجل سرق منه خمس سنوات مظلمة لم یستطع أن یهدینی خلالها وجه طفل.

* * *

نعم وجه طفل ... وليس وجه رجل ألتقيه عند إشارة المرور ! لكنه حدّق ..

شحن النظرة بالود .. بالرغبة .. بالحلم أن أبتسم له ، أبادله الفرحة . وبعد ذلك يلحق بى بسيارته ، يقف .. ويتصور أننى سأقف وأنتقل بكل بساطة إلى

جانبه تاركة سيارتي على الرصيف يهلع قلبها لأجلى.

سیبادرنی :

_ إسمك ؟

سأخترع له اسمًا .. أى اسم سعفنى لسانى وينطقه .

ثم :

۔ من أنت ؟

سأخترع له كذبة جديدة .. أنا ابنة فلان ، أعمل فى مؤسسة كذا . و عاذية !

سیرتعش . بالطبع سیتمنی لوکنت امرأة !. سأکون أسهل علیه . لکنه لن یعدم وسیلة یثیر بها اهتمامی لعّل وعسی .

طرت بسيارتى . تمهل هو . لابد أنه يلتقط رقم السيارة . وسيحظى بصديق له فى إدارة المرور يستخرج له الاسم ، والعنوان ، ورقم الهاتف و

ألو

_ من أنت ؟؟

_ أنا الذى قابلك عند إشارة المرور.

_ وماذا بعد ؟؟

_ ابتسمت لك .. فكشرت في وجهيي .

1.7

- _ مادمت كشرتُ في وجهك . فلم الاتصال ؟؟
 - _ أعجبتني
 - _ وأنت لم تعجبني .. ولن تعجبني .
 - جربي .

و

سأغلق الحط في وجهه .

مرة ثانية .. سوف يعاود الاتصال وسأصرخ:

- _ ماذا ترید ؟؟
 - _ لقاء .
 - _ ياكلب.
- _ الكلب اوفى مخلوقات الله.
 - ۔ ياوغد .

وسأصفق السهاعة .

لن يتعب . ولن ييأس . رجل واثق من نفسه :

- _ أرجوك لا تكونى عصبية .
 - ــ ماذا ترید ؟؟
- لهجتي ستكون أهدأ .
 - _ قلت أريد لقاء

- _ لماذا ؟؟
- بعض الرقة في صوتي .
 - _ لنتعرف.
- ـ ولكني لا أريد أن أتعرف.
- _ فی لهجتی دلال .. وتردد .
 - _ حاولي . ولن أضايقك .
- مل أنت صادق فيها تعد به ؟؟
 لهجتی فیها رضی .
 - ـ. أحلف لك .
 - _ وماذا بعد اللقاء ؟؟

لهجتي فيها موّدة .

- _ أبدًا .. قد نكون بعد ذلك أصدقاء .
 - _ أصدقاء ؟؟

في لهجتي نبرة أمل.

* * *-

أمل داعبني .

أحتاج حقًا لصديق .. الشهور الطويلة التي تنقلت فيها وحفيت أقدامي

وأدماها شوك المتابعة ، أفقدتني كثيرًا من الأصدقاء .

كنت لاهية عن كل شيء. وبعد الطلاق ، افتقدت كثيرًا من العلاقات التي بنيتها يوم كنتُ زوجة . النساء لا يرحبن بي . كل واحدة تتصور أنني سأسرق منها زوجها . . والرجال تحوّلوا بقدرة قادر إلى ذئاب تلاحقني ألسنتها اللاهثة بشبقها العنيف .

عشت فى فراغ احتوانى حتى كدت أحس أننى وحيدة فى هذا الكون. لا أسمع سوى صدى صوتى ولا أرى إلا خيوطًا متحركة هشة لا أستطيع الإمساك بها. ولا الإفلات من مراقبتها وكأننى سأحظى يومًا بخيط متين أتعلق به. يرجحنى ثم يغمرنى ، يلتف حولى وأشعر بالأمان.

صديق اا!

نعم . أحتاج لصداقة . لمعبر أمر منه فارّةً من الكوابيس والأحلام إلى الواقع ..

سيعترى صوتى الفرج. سأسأله ثانية لأتأكد:

_ أصدقاء ؟؟

نعم. لم لا؟

...........

سيختنق صوتى .

ـ لا تردين ا هل ترفضين دعوتي ؟

- _ أين ؟؟
- أخيرًا . . لهجتي فيها القبول .
 - _ أى مكان تريدين .
 - _ أخشى أن يراني أحد.

لهجتي فيها تردد .. ألستُ امرأة مطلقة ؟؟

- _ كل الأحد هذا يخرج . . ويعيش .
- ـ ولكن كلام الناس دبابيس تدمى. فتثير الرائحة.
- _ هواية الكلام لن تغفلك حتى لوكنت في قمقم .
 - _ إذن. اختر المكان. أى مكان خال من البشر.
- ــ سأختار. سنلتق يوم كذا الساعة كذا ... و سأغلق السياعة .

* * *

ف الليل سأتقلب ... سأقلق .. سيكون الفراش شوكًا . ما الذي سيحدث ؟؟

رجل له عينان جميلتان . لا أعرفه . يدعونى للقاء وأنا امرأة خاضت غار تجربة فاشلة . هو لا يعرفنى . فهل أجرؤ أن أقابل رجلاً وكل الرجال من حولى ذئاب وصقور ؟؟

سأحزن .. إد تترسب هذه الفكرة فى رأسى هذا يعنى أننى سأحرم نفسى فرصة قد تكون ذهبيّة . سأحرم روحى لحظة تسافر فيها إلى مدن العشق والرعشة والاستشفاء من مرضها ، و

سأداعب جسدى وشفتى : سأحرم هذه الحيوانات الصغيرة الراكدة في هذا البض الوسيم أن تختار عشقًا يدغدغها . ويوقظ فيها نبرات جفت وارتحل عنها موسم الربيع .

أليس هذا ظلمًا ؟؟

النار تحرق .. هذا صحيح . لكننا نحتاجها لندفأ . الماء قد يغرقنا . لكننا لا نستغنى عنه ليبلل جفاف حلوقنا في مواسم العطش .

الأشواك كلها تدمى لكننا نكون قد شممنا عطر الزهور التي تحرسها.

لماذا أحكم على كل الرجال بأنهم ذئاب فأسدُ باب الأمل أمامى .. الأمل في أن يكون لى طفل أعانق وجهه .

كيف ؟؟ ولماذا سيأخذنى التفكير إلى هذا الحد ؟؟ أليس من الممكن أن يكون متزوجًا وله أطفال يعانق وجوههم ؟ أو أنه يريد أن يتسلى ؟ أن يغير طعم حياته التي ربما ركدت بفعل الوقت ومرور السنوات فمّل وجه زوجته .. أو .. ربما هو يحبها .. لكنه فقط يريد أن يعيش تجربة عابرة .

وأنا 11

هل أكون ابنة السبيل المتسولة السهلة التي تنتظر المنحة ؟؟

أنا بحاجة إلى رجل . رجل حقيقي . رجل لا تتواطأ نظرته مع ما بداخله من

حيوانية وتوحّش . رجل لا يستبيحني لنفسه بمجرد نظرة تجردني من أصغر ما أرتدى .

ولكن ! أين هذا الرجل ؟ أغلب الرجال لا يصلحون للحب .

الرجل الذى أريده له مواصفات معينة . أريد أن تكون له نظرة لا تخدشنى . ولا تعريني . نظرة رطبة حانية . تحتويني . خجولة تحترمني .

آه ... هل يوجد رجل كهذا ؟؟

وهذا الذى غرس نظرته الصقرية فى مسام عينى . هل أعطيه الفرصة ؟ هل أعطى الفرصة ؟؟

. Y

لقد كانت عيناه مركزتين. واثقتين. فيهما إصرار، فيهما كلام يقول: « لن تعصى على امرأة. أنت ككل النساء »

هل أصير ككل النساء التافهات ؟ هل أسلم نفسى لعينيه تنهشان حتى العظم ؟؟

لكن عينيه جميلتان.

ما أهش جناح الفراشة الجميل.

سأطوى نفسى . سأعانق دفء المكان . سأطرد عينيه الجميلتين . سأحول أن أنسى يوم كذا ... الساعة كذا ... وسأرحل في نوم لذيذ .

* * *

دقات المطر

مطر

مطر . . .

والغيوم عرائس بيضاء تتعانق فى السماء. ثم تنفرش ، ثم تتلاصق ، تتزاوج ، تطلق شهقة ، تلتمع ، تضىء ، تلد المطر . خير يحلب من السماء ، والأرض تفتح نفسها ترتجف إذ تُقرغ النشوة بداخلها . تمتص . وتزهر . وصوت الزخات له رنين علب كأغنية أُمِّ تتهادى إلى أذنى ، تنزلق إلى قلبى . أحسها . أسمعها :

ئمْ .. ئمْ .. ئمْ .. ئمْ ..

هواء باريس يلفح وجهى ، مداعبًا تارة .. وقاسيًا تارة أخرى . يدخل إلى رثتى باردًا ، ناعمًا له رائحة الصبر والأمل .

الزحام شديد. ونظراتى تبتلع الوجوه التى لا تجد لها مكانًا فى الذاكرة . نهار يركع للاهثين المتزاحمين على المتاجر ، على أفران الحبز ، على الباصات ، والتاكسيات ، على المقاهى ، كل وجه يحمل بصهاته وحكاياته . وتشتعل

ذاكرته بآلاف الأسماء، والمناسبات، والتذكارات. كل ذكرى تحمل طعمها، حلاوتها، مرارتها، ووجهى!! لابد أن كل العيون ترى فيه حيرته، وربما قصته، أو ربما تفيض منه هذه الأفكار التي لا تهدأ، تتسارع تخطو معى كلما خطوت خطوة على الأرض المبللة.

المطر يلتمع على الأسفلت الأسود .. ذكرنى المشهد بوجه المرأة الأفريقية ، وهى فى لحظة مخاضها . مشهد رأيته فى أحد الأفلام وتقلصت عضلاتى .. يومها قررت ألا أمر فى لحظة كهذه .

الماء جداول تنحدر إلى الأطراف حيث تبتلعها فتحات المجارى . هنا يصب العَرَقُ . والجدول . . آه لو تصب هنا كل الموروثات البالية . كل الأفكار الحجرية التي ولدت في العقول واتخذت قرارها الأبدى بألا تغادر . . ولا تلين . مطر . . .

مطر ...

والهواء البارد كصفعة أب لا يكبر أبناؤه أمام عينيه وباريس العروس ، وأنا ! التائهة الجديدة في مدينة تحلم بها القلوب قبل الرؤوس. أحس لسعة البرد. أدفن كني اليسرى في جيب تنورتي الضيقة. وكني اليمني تحمل المظلة الزاهية تشد عليها فأتذكر كف أخى التي شدّت على كني وهو يودعني قبل الرحيل. وكلاته التي تدحرجت من ثغره. كلمة تدفع الأخرى وكأنه يخشى لو تأتى أن تخونه الكلات أو يفرّ بعضها:

ــ ذهبت لمزيد فى العلوم . عيشى هناك . استفيدى من وقتك . واستمتعى بقدر ١١٤ ما تسمح لك به الحدود المرسومة تذكرى دائمًا أننا شرقيون! عرب ولنا عادات .. وتقاليد .

ابتسمت له مداعبة:

_ وإن أحببت « فرنسيًا » فماذا أفعل ؟؟ هل أتزوجه ؟

قال بطريقة ودية لا أدرى هل ليقنع بها نفسه أم ليقنعني :

_ لا أتصور أنك ترتكبين حماقة كهذه . أنت تعرفين الأصول ... وتقاليدنا ... القد نفسه

يلفه أخى ساخنًا حول عنتى حتى وأنا أحمل وعيى وعقلى ، وثقافتى لأندرج فى ساحة الحياة . أبحث عن موطئ أكبر يتسع لكل الأحلام ، والأمانى والأمل فى أن يخفق قلبى مرة واحدة بحرية .. بشىء اسمه الحب . كلمة لا يعترفون بها وكثيراً ما يقفون فى وجهها كالسد المنبع .

وأنا

هل حقًا أستطيع أن أترك العنان لقلبي فينطلق كحصان جامح ؟ هل يحدث أن يكون مقرّ قلبي قلب رجل لا تربطني به صله قربي ولا دم .. ولا دين ؟

حين كنتُ أمازح أخى ؟؟ لم تكن الفكرة قد سبقت ما قلته . جاءت وليدة اللحظة ذاتها . أترانى الآن أندم إذ تركت فى قلبه إحساسًا بالخوف منى أو على ؟؟ هل سيعتقد بأننى أجرؤ أن أفعل شيئًا أو أتخذ خطوة أعلم أنها ستقيم الدنيا على رأسى ولا تقعدها .

هل يتصور أخى أننى أنسى تلك المهاترات التى أثيرت حول الزواج من العرب ٢٠٠٠ لقد دعا البعض لحرمان الكثيرات من حقوقهن ، السكن ، العلاوة الاجتماعية ، مؤكدين أن هذه المؤهلات وحدها تجعل العربي يسعى للزواج من بناتهم . ناكرين أية ميزة أو صفة حلوة تشد الرجال إلى بناتهم . متناسين أو قاصدين أن هناك شيئًا اسمه الحب يربط بين قلبين وتنكسر دونه كل القيود .

إحداهن كتبت مرة تعترض على هذا الظلم وتذكّر بأن بعض الشابات تزوجّن « أجانب » لاتربطنا بهم صلة دم . ولا دين . وجاء الرد فى عدد آخر مفجعًا كتب أحدهم يقول : إن مثل هذا الزواج يعتبر مكسبًا فقد دخل الزوج إلى حظيرة الإسلام .

ياللسخرية ! ياللتقاليد الثلجية ، وهذه الأفكار المترسبة في الظلام .كم هي عجاجة لمشاعل تذيبها ، تحرقها وتتفتح في أرضها زهور جديدة !

وقفت في مكانى ... أمام أحد الأكشاك المنتشرة التى تبيع الصحف مجلات مثيرة . صور جنسية تلتهمها الأيدى والعيون .. تقززت . سحبت مجلة للأزياء قلبتها لم تدهشنى . عندنا يلبسون كثيرًا مثلها . وهنا لست بحاجة لأى مظهر . الناس يفكرون بطريقة أخرى . بحثت عن صحيفة عربية . فرحت ، وحين تصفحتها أصابنى غم بالغ . وجدتها مليئة بأخبار الحروب ، والقتل . صور مشوّهة لأطفال ونساء ، ووجوه أخرى عبارة عن عظام ناتئة من أثر الجوع ! وفي صفحات مقابلة وجوه أخرى تتصدر صفحات المجتمع المخملى .. وجوه منمقة وأخبار ملفقة .

إعلانات تلتهم أغلب الصفحات ، مباركات ، وتعاز ، وإعلانات أخرى تطلب بيونًا .. تطلب خدمًا .. وهواتف سيارة !! إعلانات عن طلب «كانيش » غالى الثمن ضاع أو خادمة خرجت ولم تعد !

زوایا کثیرة ... لبعض الجهلاء تشتم عباد الله وتسمى الشتیمة نقدًا . تحقد على الآخرین وتسمى الحقد وطنیة صادقة ! لیت هذه القلوب تغسل مرات بمثل هذا المطر.

蜂 特 特

مطر

مطر

حنان سماوى يتدفق في سماء رحيبة ، وبرد يفتت الصمت .

هنا .. فى أعاقى ، فى عاطفتى التى اشتاقت لدفء الصحراء التى لوحت الشمس وجهها ، عروسة سمراء دافئة تلتمع على جبينها حبيبات السراب ، وعطش الجوف ، ونور القمر .

حين ارتفعت بى الطائرة ودعت الأرض بحب . كان الحبل الأليف يصل ما بين الأرض ، وقلبى . وها هو يمتد ولا ينقطع ، ولايتراخى رغم مايثقله من وصايا . وتخديرات وتذكير بالتقاليد مبطن بشبه تهديد رقيق ، ووعيد . وكأننى طفلة ترنو إلى النار ولا تدرك العاقبة .

ها أنذا ...

أنزرع تحت المطر البارد بعد أن تركت النار في الصحراء تلتهب . حملت

طموحى إلى بلد الحرية بلد الأحلام. فهل حرام أن نحلم؟ أن نغادر القمقم المغلق الذى زرعونا داخله محارات يخشون عليها أن ترى النور؟ أن تراها عين غريبة فتفتحها وتحييها وتكسر التقاليد! كم أكره هذه الكلمة وحين كررّها أخى تمنيت لو تنعدم من قاموس حياتنا التي غادرتها لأبدأ حياة جديدة.

مطر ...

مطر ...

موسيق انتحاره من السماء تعزف كلما ارتطمت بشجرة أو مظلة .. أو رأس عاشقين . كأنها تريد أن تمسح من الدينا كآبتها .. وشوائبها . زخات يلاحق بعضها بعضا أحسها تجرى أنهارًا من الفرح تتسابق إلى شراييني فأزداد إحساسًا بالبرد . أتذكر أنني خرجت هذا الصباح لأبحث عن « بالطو » يُخمد العاصفة داخل جسدى ، وعاصفة الشوق في قلى لأرض الصحراء الدافئة .

عيناى تتابعان واجهات المحلات. الأسعار الخيالية بحاجة لثورة تكسّر الواجهات وأصحابها ، والبرد اللافح يقرص جسدى فأندفع نحو مقهى قريب أطلب كوبًا من الشاى الساخن .

جرعته مرة واحدة سرى دفء عجيب جعلنى أبتسم ، وحين رفعت وجهى التقيت وجها مبتسمًا كأنه يردُ على ابتسامتى أو يهزأ منها . كانت له عينان ينبت داخلها حقلان أخضران . نظر إلى صدرى ، لمح السلسال الذى يحمل « ماشاء الله» المتم بريق مفاجئ واستأذن بأدب :

_ هل تسمحين أن اشاركك طاولتك ؟

لم أجد مفرًا أمام هذا الأدب الخجول والعينين الجميلتين رحبت به :

ـ تفضل. الطاولة تتسع لأكثر من اثنين.

هيس:

ـ عرفت أنك عربية من هذا .

وأشار إلى السلسال .

وابتسمت :

ـ وأنا عرفتك من العربية التي تتحدث بها .

تعانقت نظراتنا . أحسست بفرح . الآن أستطيع أن أنهى الصيام .. هذا وجه عربي ، لسان عربي .. سأتحدث إليه .. وسأستفسر عن بعض الأشياء التي أجهلها . جلس .. استمرت نظراتنا متعانقة .. كأننا نعرف من نحن . ومن نكون . كأننا التقينا قبل هذه المرة بالصدفة أو في الأحلام . أو مع قطرات المطر المسافرة من سماء أخرى .

قلت :

ـ لقد أنهيت فنجان الشاى . وأنت .. هل تطلب شيئًا ؟

.. ¥ _

_ سأستأذن إذن .

قلت هذا وبى رغبة أن يرفض استئذانى . أو أن يقوم ويرافقنى فى هذا الجو الرمادى البارد . تحرك . فرحت . قال :

_ سأرافقك أو

استدرك كأنه تسرع:

_ أو هل يزعجك هذا؟

.. ¥ _

قلتها دون أن أفكر . دون أن أبطئ في الرد . ولكن حين سار قربي أحسس برهبة كأنها إبر تذكرني . هو بالطبع الخوف الذي يتبلد في داخلي . جعلني هذا أتلفت أخشى أن تصادفني عين تعرفني . . فتنقل الأخبار إلى أخي . إلى الأرض التي تأبي أن نتنفس هواء عذبًا ونغرس بذرة في أرض جافة .

كنتُ أبحث عن طريقة أدارى بها قلقى وهو قربى . ألحظ خطوته على الأرض المبللة وكفّاه داخل جيوب جاكتته .

بادرنی:

_ نظام . اسمى نظام . طالب . وعامل .

_ وأنا نوّار . طالبة . كسولة لا أعمل .

ـ لونك أسمر ولهجتك توحى أنك من

_ الصحراء ... خليجية وستقول بأنني مادمت من هناك فلا داعي للعمل .

ضحك ثم تنهد بعمق . كانت السماء لا تزال تحلب خيرها :

_ حاولت أن أذهب إلى هناك . لكن الأبواب مسدودة .

أشرت أمامي :

_ الحياة هنا رائعة ، والجوكذلك . وأنت تعمل هنا . فلماذا تذهب إلى هناك ؟؟ .

عقد مابين حاجبيه . تأثر من كلماتى :

_ أنت مخطئة . الحياة هناك تبقى أجمل . أنا ولدت هناك . وتعلمت . أنهيت المرحلة الثانوية . حسبت أننى سأكمل كل تعليمى لكن أبواب الجامعة سدت فى وجهى .

_ لابد أن مجموعك لم يؤهلك لذلك.

ـ لا .. مجموعى ومجاميع كثيرة كانت كافية . ولكن !! أحسست بالغصة .. أعرف كل شىء . لم أحاول أن أستنزف منه أكثر وأفجر عذابه . أكمل هو :

ـ يشدنى الحنين إلى هناك . فكرت بالزيارة لكنهم رفضوا إعطائبي فيزة دخول . و ...

قاطعته :

_ ولكن أهلك هناك وتستطيع .

زفر : ٠

_ كأنك لا تعرفين القوانين . منذ غادرت لأدرس انتهت إقامتي . لم أر أهلى منذ سنتين .

حاولت التخفيف عنه:

_ يبدو أنك تعانى .

وكأنه كان بانتظار أن أفقأ دمل متاعبه :

- _ لاتتصورين كم هى الحياة قاسية . علينا أن نتعلم . لا أرض لنا . . لا وطن . . حتى ولا جواز سفر . شيء نحمله لتبصق المطارات فى وجوهنا . علينا أن نشتى لنوفّر مصاريف دراستنا . وبهذا نرد بعض الجميل لأهلنا .
 - _ ليس عيبًا أن يعمل الإنسان.
 - لم أقل هذا .. ولكن هل تعرفين أى عمل أقوم به ؟
 هززت رأسى متسائلة وأحنى رأسه :
- _ أعمل فى حانة . وبعد ذلك أذهب إلى بيت عجوز أنظف لها البيت ، أغسل ملابسها ، أكويها . أجهز لها كل ما تطلب مقابل أن أنام فى غرفة أشبه بالمرحاض . وبهذا وفرت السكن .
 - ا يا إلحى 111
 - ـ نعم .. يا إلهك . إنني أشعر بعظامي تتصافق من التعب . لكني ملزم .
 - _ هل مثلك كثيرون ؟
- بالطبع . وكلهم له مشاكل ومتاعب . والأكثر من هذا الحنين إلى الأهل ، لأى أرض ولد عليها ، أليس مخزنًا أن نولد على أرض ثم ما أن نغادرها حتى تصادر عودتنا إليها ؟؟ صدق نحن نحبها لأننا لا نعرف وطنًا غيرها . فكيف ترفض الأم جنينها ؟ وكيف لا ...
- .. اسكت ، آه .. لقد عذّبت قلبى . الشكوى نفسها أسمعها هناك من أمهات ، أمهات ، وآباء .. وأزواج لا يسمح لزوجاتهم .. و .. يا إلهى هناك قوانين كثيرة خاطئة ولكن : آه .. لقد أوجعت قلبى .

اندس في وجهه خجل :

- آسف ، من اللحظة الأولى كنت ثقيلاً علىك .

لا تعتذر مثلك يبقى دائمًا بحاجة لمن يسمعه ، لكن صدقنى .. نحن أيضًا
 نعانى .

استغرب كلامي:

_ ماذا ؟؟ المال عندكم وفير.

ـ هل تتصور أن المال يحمينا من التعب ، والمعاناة ؟؟

_ المال يحل مشاكل كثيرة.

هنا أنت تعترف. المشاكل ولكن! ماذا عن الذى هنا ؟؟

وأشرت إلى صدرى .. وتابعت :

ــ فى الداخل فى أعاقنا يا

أحس أنني نسيتُ اسمه فذكرني :

_ نظام .

ضحك ضحكة صغيرة وتابع:

ــ اسمى ثقيل .. مثلي .

ضحكت . كان دمّه خفيفًا :

- اسمع يا نظام .. أتصور أنه رغم كل الهموم التي تعانون .. تشرد ، غربة ،

فقر، ربما اضطهاد.. ولكن أنتم تحررتم رغم هذا من أشياء كثيرة.

حسمت

- ـ هل تفهمني ؟ .
 - _ مثلاً ؟؟
- _ أقول لك . لوكانت لك أخت في هذا البلد ، ورأيتها تمشى مع رجل . . تمامًا كما أنا الآن أمشى معك ، وأتحدث بحرية . هل سيغضبك هذا وتثور . . .
 - _ ياه !! هل هذا فقط ما تعانين ؟؟ هززت إصبعي في وجهه :
 - _ أرأيت ، هذا الأمر التافه حصار .. وغيره كثير كثير.
 - _ ولكني لا أراك تحاصرين نفسك. إنك شجاعة .
- _ يبدو لك ذلك . في داخلي أحس بالخوف . أتصور أن كل العيون تراقبني . وأنها مجتمعة ستكون عيني أخي . .

قال بحزن:

- _ آسف إنني بمرافقتك أسبب لك إزعاجًا.
- _ لا .. صدقنى . أنا مرتاحة إليك . ولكن هذا هو الواقع . كنا قد اقتربنا من أحد المقاهى . تلفت . ابتسم .. قال :
 - ـ بودى لو أعزمك على جلسة مريحة هنا . ولكنك .
 - _ أرجوك .. لاتفهمني خطأ .

- أتصوريا نوّار أنك كبرت ويجب أن تكون ثقتك بنفسك كبيرة , أن تتصرفى على هذا الأساس . مادمت لا تتصرفين إلا بحدود العقل . فلا يجب أن يسك سيف الحوف .
 - _ الحنوف نما معنار
- إننى أعجب كيف يدعونك تسافرين للعلم إلى بلد كهذا .. ثم يغرسون بداخلك الحوف من الحركة ، فتحاصرين حريتك .
 - _ هذا هو التناقض الكبير.. وماخني غيره كان أعظم ..
- علیك أن ترفضیه .. الآن فرصتك أن تكونی شخصیتك ، أن تعتمدی علی
 نفسك ، أن تخلق رأیك ..
 - ـ أجل .. سأحاول ذلك .

كنا قد وصلنا إلى نهاية الرصيف الذي تمتد عليه المقاهي . التفت إلى :

- _ على أن أستأذن الآن ... يبدو لى ذلك .
 - ـ هل ضايقك خوفي !
- ـ لا .. بالعكس . قد نلتقي في صدفة أخرى ، ونتحدث .

مددت كنى الباردة . مدّ كفه .. تعانقت الكفّان ، سرى دفء فى جسدى وأنا أغوص فى حقل عينيه وأهمس :

- ـ ربما نلتتي صدفة . وربما نكون أصدقاء . ابتسم سعيدًا بجرأتي :
 - _ هي الخطوة الأولى. ثم كل شيء هين. و..... ابتعد.

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المطر لايزال رذاذًا .. وديعًا يغسل كل شيء . ويقرر أن يمسح عن الطرق كآبتها . وعن الشجر شوائبه ، وعن الوجوه حزنها .

وأنا

قررت من اللحظة أن أمسح كل شيء باضوه في ذاكرتي . لا أريده أن يفقس فيها ويتزايد ، قررت أن أفتح فجوة يطل منها النور ليضيء كل الظلمة التي تقيد الخطوة إلى المستقبل .

وأكملت الطريق ... وصوت المطر يدق في قلبي فرحًا .

تم .. ثم تم .. ثم .

* * *

الصرخة في فم النعبان

تعزفُ .. أترنّم .. أناملها الرفيعة الناعمة تنساب ، تضغط بخفة على أصابع البيانون ، ويتوزع اللحن الهادئ يمتزج بنسات الغرفة .. أترنّم ... هي تبتسم .. تراقب وجهى الحالم :

- _ سعدة أنت ؟
- جدًا .. هذا اللحن يغزو كل نقطة دم .. فتتفجر فيها حيويّة راقصة .
 تقول منتسمة :
 - _ أنا سعيدة أيضا .. هكذا أحيك حالمة .. هادئة .. ودبعة كحامة .
 - ... آه .. أود ذلك . لولا

عروق بدمعها .. تتوسل:

تأتى الصرخة .. يتقلص وجهى .. تتيبَّسُ كنى فوق جبينى .. تتعارك الأشياء داخل رأسى ... يتحول اللحن مطارق .. تصطفق أبواب ذاكرتى بعنف .. تزمجر صرختها اللعينة ! تطاردنى .. أترنّع .. أنسى سعادة اللحظة القريبة .. تترك البيانو .. يسبقها خوفها .. تطّوق كتنى .. تدس وجهها فى عنتى .. تبلل

- ـ ماما أرجوك .. حاولي .. سأعزف لك مقطوعة باخ ..
 - _ آخ .. آخ .. الصداع .. الإيقاع الشنيع ..

تغمر في .. هلعها .. حبها .. حنانها العذب .. همسها الدفئ .. أَلَقُ وديع يشع حولي .. لكن الصرخة الملعونة !!! أقع ...

فوقى تنهمر كحبة مطر موسمي .. تنفلت من وجهها حمرة ناضرة :

- _ لا .. أرجوك لا .. أنت بخير ..
 - _ الِلعنة ! الصرخة تطاردني ..

قطرة ماء تنسكب داخل حلق .. وَحَبّة مُرّه .. أبتلعها وأتنسم عطرها الدّفاق .. عرقها ينزلق من جسد مرتجف وأرى وجهها الأبيض الصاف .. وثغرها يهتف :

- _ أنا أحبك .. هل أعزف؟؟
 - _ اعزفي ياحبّة الروح.
- _ سأعزف اللحن الذي تحبين .. سيكون أقوى من الصرخة .. صدقيني ..
 - _ رحلت .. اللعنة عليها .. وعلى مَنْ زَرَعها في رأسي .

* * *

تتراخى أطراف .. تَتَنَمَّل .. يداخلني هدوء كغيبوبة أذوب فيها .. أسمو .. يغازلني نعاس شجن .. يدغدغ مفاصلي ، كيده حين تداعب كل شيء .. الموسيق تعبر مساماتي ووجهه يتلقّف نعاسي .. وذوباني .. ذراعاه ترفعاني إليه .. كارنبة يخف وزني .. ويلصقني بصدره أندس في ضلوعه اندساس الأرنبة في جحرها الدافئ ... أغرق في النعاس .. أغرق .. أغرق ..

جسدى مسجى على الأرض .. أحلام تتراوح أطوالها تتداخل .. تغرينى باستسلام عذب .. ويتفجّر صمت الروح .. والموسيق تهب كنسهات رخيّة تحملنى . أنفلت من جحرى .. من بين ذراعيه الحنونين .. أتحرر .. أترك جسدى تغالبه الأحلام ، ويتراقص منتشيًا .

أركض .. أركض .. لا أدرى .. جهات أربع تفتح أذرعها الصاخبة .. جنّات .. نيران .. عواصف .. نسيات .. رطوبة .. ثلج .. صراخ .. أغنيات .. سُعار مجنون .. وتأتى الصرخة . تشق الأصوات تغلبها تسقط بثقلها العجيب داخل جمجمتى .. أحس لها ابتسامة وقحة .. ابتسامة مومس باعت كل شيء في ليالى الحقد .. والكراهية .. والغيرة العمياء .

تسقط الصرخة كجثة ترفرف حلاوة الروح فيها .. تقاوم الموت لتقتل الشعاع الأبيض داخل رأسى ... تبذل أقصى ما تستطيع لتقطع خيوط الأمل العذب الذى يتألق ... وكل الشرور في أناملها الشقية الحشنة أقاوم ...

أركض .. الدم يتوزع بقوة يدفعنى .. أركض .. غابة فسيحة .. أشجارها باسقة لكن خضرتها كثيبه كأن آلاف العواصف الرمليّة قد غزتها .. نامت عليها ، وأعشاب الأرض جافة طالت كأظافر جنيات الليل الغادرات .. شوك .. لكن قدسي تُصران فأدوس على دبابيس الأرض .. الصرخة المجنونة تأتى . الموسيق العذبة تتراجع .. صداها لا يكسر حدة الصرخة و ... أهوى .. ثم أرتفع .. و ... أراه بين النباتات الجافة .. يتحلق جسده دواثر .. دواثر متداخلة . ويرتفع رأسه نحوى ..

أرتعد .. ألتفت إلى الوراء .. هو ذا جسدى مسجّى لا يزال .. آه لو أعود

إليه .. أندغم فيه .. أتدثر .. أغوص .. أفر من هذا الثعبان الحاقد ..

_ لا .. إذا رأيت الثعبان . فلا تتحركي

قال أخي وهو يحدثني عن ذات مّرة حين التتي الثعبان في إحدى المزارع .

_ إياك أن تتحركى .. قنى حتى ينسل مبتعدًا وإلا هجم هجمته القوية . الحوف ... الرعدة .. رعد يتصافق داخل جسدى .. بروق حمراء .. الفاتحة .. آية الكرسي .. المعودات .. السماء .. الله الرحمن ..

أتصلب .. قال أخى

أنتظر . . . قال أخى . . .

فم الثعبان مفتوح كفرج امرأة عابثة .. يفح كأن جهنم الحمراء تنفث أحشاءها الحارقة في وجهي .. يتأملني بنزق شرير .. أُصلِّب حتى رموش عيني .. لا يجب أن أتحرك . أخى قال

لكننى .. أخشى ... أكاد أتهاوى .. أسقط فى لجبج اليأس .. لا مفّر .. الشعبان أمامى .. الأشواك تحت قدميّ .. لا منقذ من شر المخلوقات ..

أتعوذ ثانية داخل صدرى تنبت تعاويذكنتُ قد نسيتها منذ غابت حكايات جارتنا المسائية .. حول « منقل » الفحم .. ورائحة « الطرثوث » تفوح .. وطعمه المرّ .. المرّ .. مرارة في حلق .. لعابي كله مر .. وهو يتطلع .. ويقترب ... يصل إلى قدمى .. بدأ رحلته .. يتسلقني .. لا أتحرك .. أخى قال

جسده الأملس ينساب على جسدى .. الرجفة تصمت .. أبتلع حتى دقات

قلبى .. أتركه يغزو الجسد .. يتجول عليه .. يشُمُ رائحة الحبيب المتآلفة مع كل نقطة فيه يتشمّم .. عرقى المتصبب .. يُطرى جسدى .. فيزلق الثعبان من منطقة إلى أخرى .. هادئًا كأنه يتمشى في سهل أخضر .. كأن شعر جسدى هو العشب النابت ذو العطر الربيعي ..

أخشى أن يعوى الجوع فى داخله .. فينقض على عنقى يمتص دمى .. لكنه بوداعه ينسل عائدًا مترنحًا للأسفل .. يتكور تحت قدمًى الثابتتين .. أحسها محفورتين فى الأرض .. كأننى نخلة زُرعت منذ آلاف السنين تأبى إلا أن تظل واقفة تتحدى .. هيا .. تحرك .. خذ قامتك الزاحفة وارحل . افسح لى الطريق .. جسدى مسجى هناك .. وصوت البيانو العذب يأتينى .. يهدئ روعى .. ووجهها الذى خلقه الله كوجه العصافير .. فأنتشى .. أود لو استمر هذا الانتشاء لأظل صامدة حتى يرحل . لكن الصرخة اللعينة تصفع اللحن .. ووجهها .. وحنان ذراعيه ـ اللذين خبآنى فى صدره .

انتفض .. اهتز .. أقاوم ألا أمسك رأسى لأسكت قرع المطارق الصدئة داخله .. لكننى أفشل .. أصرخ .. تنتفض الصرخة ... تغادرنى .. يتسع فم الثعبان ينتفض .. ويفرغ الصرخة من نابين حقودين .. ينفث السم في ساق .

شىء كالنار .. يسرى .. يسرى .. كفّاى تتقلصان تقبضان على عرقها المالح ليرتد إلى مساماتى .. يشحننى بالقوة .. ليبطل مفعول السم الزاحف .. لكن السم يسرى .. ينساب .. إلى بقاعى .. فأغيب .

* * *

يدها تضغط على أصابع البيانو . يسرى اللحن .. يخترق المسافات .. يعبر الربح الصارخة .. وهنا يستكين داخل أذنى .. لحن «باخ» .

- آخ .. آخ .. أترنح .. أتماسك .. أترنح .. أتماسك .. نشوة اللحن النافذ إلى أذنى تتعابث .. وجهها الرقيق يشع عبر تموجات الصوت .. يمدّنى بالقوّة يعنفنى على هذا الاستسلام الحائب .. ويزجر الثعبان الذى يتجشّأ سُمّه .. يبتعد زاحفًا .

أنادى .. أنادى .. الصوت يخرج من داخلى .. ولا يخرج . أشباح من حولى تتحرك .. دم أحمر يتفجّر من مقلتى .. الكون دم أحمر ! صوتها العذب وحده يحمل عطر زهرة .. حمراء متفتحة .. يتوسل :

- ماما قومى .. تحركى .. افعلى شيئًا .. وإلا فقدت عينى الحلويتن .. وعينيه اللتين تحملان صورتك .. و .. كُلك . أستفيق .. أقرر أن أستفيق .. أن أتحدى السم أنحنى .. ألتقط النباتات الجافة .. أربطها .. أوصلها .. يولك حبل قوى .. أشد موضع الألم .. أشد .. أشد أستل شوكة .. أمزق لحم ساقى الملدوغ .. ينهمر الدم متخثرًا مجزوجًا بالسم الأصفر .. وتتقاذف من جوفى كل ما جادت به معدتى المتضرمة بغثيانها .. أرتاح ... أنزلق إلى الأرض .. أتمدد صوتها داخل روحى :
- _ تحبين هذا اللحن .. سأعزف لك الآن .. الدانوب الأزرق . زرقة السماء تلوح .. غيمتان تتراقصان .. أتذكره :
 - _ أحب هذا اللحن .. وتحبينه .. هيا نرقص ..

هي تعزف .. نحن نرقص .. الصوت الشجي ينقذ روحي ..وسمتها ..

وشعرها المتهدّل على كتفين ناعمين .. وثغرها المبرعم كزهرة تنادى .. هَيَا شُمّنى أيها الرائمي .. عذبة .. وكفاها تلامسان وجهى .. عنقى .. باردتان أزجرها .. تقلب شفتها السفلى تتكور كثمرة ناضجة ..

_ طفلة .. مها تكبرين ..

وتتحداني :

_ إنني أكبر.. وأهمس :

_ وأنا أيضًا .. يتغضن جبيني .

يدها .. أحسها باردة فوق جبيني .. الرأس يهدأ .. تغادره الصرخة .. كأن يدها استلت تلك الجثة التي همدت بسُمّها داخل ساقي .. وغادرته .

الزرقة تصبح أكثر نقاوة .. وبهجة .. الكون أصنى .. أنهض .. لا أحس ألمًا في ساقى .. أجرى .. أركض .. أضرب النباتات اليابسة .. أدوس على الحشائش القاسية المفطومة منذ زمن .. وجهها ينادى .. الألم صار قوّة تطييف بخفة . نحو مصدر الصوت العذب الآتى من هناك حيث جسدى الكسول يذوب في أحلامه . يجب أن أسرع .. أن أواصل الطريق الشائك .. مها كان شوكه سامًا .. لدغة الثعابين لا تهم .. جثث الموتى لا تحس إذا دسنا عليها .. الليل الذي مضى لا يكترث بنا .. النهار الآتى وحده ينتظر كوجه طفل ينتظر ثدى أمه .. إليه أركض .. ذلك النهار الغائب الذي سيأتى واللحن الذي يغمر الكون .. بأهازيج البراءة .. والسماء الزرقاء والغيمتان المتلاصقتان بحب .. بشهية .. تؤكد أنها لن تنفصلا بعد هذا التيه الذي مضى ..

المسافات .. الموسيق تشق أمامى فضاء رحبًا أدور .. لا أعبأ بالجسد الرابض .. طفلة أعود .. أعارك الطبيعة الصافية .. أستنشق أحلامها الواعية أبدًا .. أتبلل بعطرها المنهمر .. أغتسل .. أمد ساق الملدوغة أزيل أثر السم .. والصرخة الماكرة .. أنفيها من دمى ، من رأسى الشاردة نحو مدينة الرحمة المنتظرة هناك . لا تزال أناملها تداعب أصابع البيانو .. مداعبة أليفة .. قطتها تتكور تحت ساقيها البيضاوين .. وهو يفتح ذراعين .. سيصدع صوته :

ـ الدانوب .. تلك التي تحبينها .. هيّا .

ونصير غيمتين . . تتَّسع لها فسحة السماء . أضحك . .

يشلنى إلى صدره ..

أعود طفلة .. أرنبة .. أمرّق أزرّة القميص .. أندس في صدره .. أنام على لحمه الدافئ .

* * *

زهـرة تدخمل الحيّ

دخلت زهرة الحى ذات ليلة لا أحد يعرف من هى ! ولا كيف جاءت ! ولماذا جاءت : ومن الذى أستأجر لها هذا ألبيت الذى تطل شبابيكه على البحر . رغم هذا ، فُتح للبيت باب آخر من ناحية البحر . كانت زهرة تشرعه فى الليل . تجلس عند بابه . وتسهر . قال جيرانها إن زهرة تعشق البحر . تناجيه مناجاة الخليل للخليل ، تبثه أشواقاً دافئة . تغنى له . يسمعون لها صوتاً حنوناً ، أو صفيرًا ناعمًا ذا موجات كأنها لغة عصافير ضالة .

زهرة امرأة ناضجة فوق الثلاثين. جميلة لها وجه أبيض صاف. مستدير وخدان متوردان يكاد ينفر دمها. وعينان سوداوان واستعتان يحرسها حاجبان رقيقان أشبه بسيفين حادين. أما شعرها فينسدل شلاّلاً كستنائيًّا يغطى أطراف كتفيها البضين. وحين تبتسم زهرة تنفرج شفتاها عن صفين من اللؤلؤ الصافى. ويبرز فى أقصى الهمها طرف سنة ذهبية سرعان ما يختنى حين تغلق الشفتين المكتنزتين.

زهرة جميلة . والحى هادئ وديع . بيوته الطينية لاتحمل صدى لأحقاد . الناسُ فى الحى متآلفون . حتى الحائم على الأسطح تعرف أوكارها . ولا تتوه . ولا تتغرب . وحين دخلت زهرة الحي . هلعت قلوب النسوة الآمنات لعب الشك في قلوبهن . ابتدأت السؤالات : هل هي متزوجة ؟؟

إذن ! لماذا تسكن وحدها ؟؟

هل هي أرملة أو مطلقة ؟؟

الخوف يزداد : أم تراها عذراء ستحافظ على نفسها وشبابها ؟

حين عبثت الشكوك والمخاوف فى القلوب . لم تعرف النسوة طريقًا لراحتهن إلا بيت « أم محمد » وقلب أم محمد الذى اعتاد أن يحضن هموم الحى . ويواسى كل مفجوع . ويبارك لكل فرح . يزغرد لسانه وترقص شفتاه ، قلب أم محمد الذى لا يفرّق ، ولا يعرف الكره أو الحسد .

قالوا لها :

ـ يا أم محمد . زهرة فاتنة بابها مشرع للربح زهرة تحب هواء البحر وأزواجنا فيه يعملون . ونحن نخشى عليهم من الفتنة .

بان الضيق والأسف على وجه العجوز الطيب وعاتبت :

- ـ تخافون على أزواجكم . ولا تخافون على بحركم .
- ـ البحر للجميع يا أم محمد . زهرة تعشق البحر .

لمعت دمعة في عين أم محمد . طاف حزن كأنه آت من البعيد :

ــ هل تحب زهرة البحر أكثر منا ؟؟ هل تعشق رمله ؟ وريحه ؟؟ وموجه أكثر مما عشقناها ؟؟ هذا البحر بحرنا . هو ذا أمامكم . اسألوه : من عشقهُ ؟ كم قلبًا

نهش . وكم قلبًا أسعد ! كم أخذ منا ؟؟ وكم أعطانا ؟ عظامُ رجالنا صارت له مجاديف . وأعناقهم صوارى . مجرنا لا أحد يعشقه سوانا . أنتم لاتتأملون .

تململت النسوة . قالت إحداهن :

_ يا أم محمد جئنا نأخذ منك المشورة . ماذا نفعل مع زهرة ؟ كيف نحمى رجالنا ؟ وأنت هداك الله تتكلمين عن البحر . وكأنك تخشين أن تسرقه زهرة وتترك الرجال .

هزت أم محمد رأسها :

ــ هذا ما يتأجج فى قلبى لكنكم لا تعلمون . اذهبوا إذن إلى زهرة . جُسّوا نبضها . افهموا منها ماذا تريد . ولماذا جاءت ! وتفكّروا فى كل ما تقول .

* * *

رحبت زهرة بالنسوة ترحيبًا فاجأهن . قبلت كل واحدة منهن وكأنها تعرفها من زمن بعيد . سألت كل واحدة عن أحوالها . تلك عن زوجها المريض . وتلك عن ابنتها التي تعشر حظها . وسألت أخرى عن كنتها التي لا تحبل . وقررت أن تصف لها علاجًا فرفرف الفرح على وجه المرأة . سألت عن «أبو يوسف» النجار الذي بترت يده وقبع في البيت وعن «شيخوه» (١) التي تبيح نفسها للرجال . وأكدت أن الشرف والفضيلة فوق كل شيء . آخر ماسألت عنه زهرة . وعرص شديد . سألت عن – أم محمد – وهل مازالوا يلتفون حولها . وتصير شرايين قلبها أذرعًا تضم الجميع ؟ هل مايزالوا يجونها ويؤمون دارها عند الشدائد والأفراح ؟ فوجئت النسوة بأن زهرة تعرف الشيء الكثير عن الحي ، وأهله .

بادرتها إحداهن:

_ إذن هذا سبب اختيارك لحينا . سمعت عن ناسه الطيبين .

رفعت زهرة حاجبًا . وبكل الثقة قالت :

_ فى كل مكان يوجد أناس طيبون . ليس هذا مقصدى . سمعت أن الحياة هنا أرحب . جثت أبحث عن وضع أفضل .

قالت أخرى:

ـ أو ربما لأجل البحر.

أو مأت زهرة بكفها:

ـ بالضبط . هواء بحركم يناسبني .

ــ لكنّ الرطوبة عندنا شديدة . تتعب الصدر . وأنت تتركين الباب مشرعًا للريح طوال الليل . ألا تخشين من اللصوص أو الكلاب السائبة ؟؟

ضحكت زهرة باستخفاف:

ــ لصوص !! كلاب ! أنا لا أخاف . إذا جاء اللص أعرف كيف أتعامل معه . أما الكلاب ! فلها علاج آخر .

ـ يا زهرة . جثت وحيدة وما تزالين .

فهمت زهرة صيغة السؤال . ابتسمت :

ــ ترکت زوجی .. وأولادی هناك ربما يأتون .

ارتطم الحنوف بقلوب النسوة . أإذن . لها زوج بعيد وهي جميلة .

وأزواجهن لهم عيون فتانة وأيضًا لهم طباع النمل الذي يمشى إلى «رائحة الدسم».

وزهرة ! يالها من امرأة !

أحست بما في العيون من رعدات ، فتودّدت :

_ أنا لا أحب الحزوج . ولا الأسواق . ولا زحام الناس . أفضل أن أبتى هنا . ولكن ! !

صمتت . لاح حزن على وجهها . تعاطفت بعض النسوة معها :

_ لو بقیت هکذا ستشجرین بالوحدة . أنت غریبة . وصرت جارة نحن مستعدات لکل ما تطلبین . والاً من أین ستعیشین ؟؟

تناغم الحزن في صوت زهرة:

_ هذا ما أفكر فيه . زوجى يتأخر حتى يرسل المال . لهذا أنا بحاجة للعمل . تبادلت النساء النظرات وثارت السؤالات :

_ ماذا بإمكانك أن تعملي ؟

_ وأى عمل ستقوم به امرأه جميلة مثلك ؟؟

كان في السؤالات كثير من الفضول. والقلق. والتشوق لمعرفة الجواب.

قالت زهرة :

_ أنا أتقن أعمالاً كثيرة . التطريز . الحياطة . عمل الحلوى وبعض الفطائر التي لا أظن أن حيكم يعرفها . وأيضًا أتقن كل ما يهمكن كنساء من أعمال الزينة .

« والحفافة » (٢) ثم أنا امرأة أتقن لغة جديدة . قد أستطيع تعليمها لمن ترغب .

_ ترغبين إذن في العمل بين البيوت؟

_ هذا ما أريد . أحتاج إلى المال كى أعيش . المال الحلال . وشددت على كلمتها الأخيرة لتبذر الأمان فى قلوب النساء . وتنهدن جميعًا ماسحات على صدورهن :

« المرأة شريفة . . تريد العمل الحلال »

* * *

عدّلت أم محمد من وضع «ملفعها» (٣) الأسود الذي تفوح منه رائحة دهن العود. ومسحت على وجهها. قالت:

_ انتبهن يا نساء يا طيبات الحيى .. أيتها العيون التي لا ترى إلا الحنير . الفتنة تدخل بيوتكن .

* * *

زهرة دخلت كل البيوت. زهرة الجميلة. أصبحت حديث الحى. سموها « هبّة الريح » لسرعة حركتها. وإتقانها كل عمل تنجزه. ارتدت نساء الحى أجمل الثياب. وتزينت « المطارح والمساند » بالتطاريز. وبالترتر الملون. تجملت وجوه النساء بأصباغ. وتفننت زهرة فى تجديل شعورهن الطويلة. صارت كل البيوت تحب زهرة تطلبها وتكرمها. فكل النساء راضيات. زهرة ذكية. تحرص على ألا تحتك بأى رجل. لا من الأزواج. ولا من الأبناء. إذا دخل واحد منهم فجأة دون أن يتنحنح أو يطلب « دربًا » تثور زهرة يحتقن وجهها وتسب

بكلمات غير مفهومة . تنتصر النساء لها يؤنبن الذى فعل . لا يُردُّنَ أن تغضب زهرة . وتعاف بيئًا من البيوت . لكن حلم زهرة ظل أن ترى أم محمد . سألت إحدى النساء :

_ ألا تريد أم محمد أن أخيط لها ثوبًا ؟؟

قالت المرأة:

ـ أم محمد حريصة على ثيابها القديمة لا تستبدلها. ولا تفرط فيها.

_ ألا أصنع لها مساند ؟؟ فطائر ؟؟

مساندها «السدو» (٤) أغلى عليها من كل شيء وهي لاتحب الفطائر. تصنع بنفسها «قرص العقيلي».

ذاب حلم زهرة صارت كل البيوت بيتها . إلا بيت أم محمد . ظل موصدًا .

ولم تثر زهرة أية مشكلة فى أى بيت . صارت محبوبة . كوّنت الصداقات . أصبحت الغريبة واحدة من أهل الحى . ونسى الناس الطيبون تساؤلاتهم . نسى الناس بيت أم محمد . تحدّثوا عن زهرة . صارت هذه الزهرة كالبيت لهم . داخل أوراقها يستريحون . ومن شذاها يتنفسون ومن بريقها يستمدون كل جديد . وحدها أم محمد تمسح كفًا بكف . ترى . . وتصمت . . وتردد :

« لا حول ولا قوّة إلاّ بالله .»

* * *

حين تُطفأ الأنوار . ويغلق الليل عيونه . تشرعُ زهرة الباب . فيأتى هواء البحر منعشا . تحمل رائحته عطرًا خاصًا تُلوِّح زهرة بيديها الجميلتين . وحدها

ساهرة عند الباب .. الناس نيام ..

وعيون أم محمد في الفراش لاتنام.

* * *

ذلك النهار . لتى الناس في بيت زهرة صبية جميلة . سألوها فقالت :

_ هي أختي .

رحّبوا بها . غريبة جديدة . هي أخت زهرة المحبوبة . والحي الطيب يحب الضيوف . ويكرمهم .

بعد أسابيع جاءت غريبة أخرى . استأجرت لها زهرة بيتًا على البحر .

_ من هذه يا زهرة ؟؟

_ هي ابنة عمي . مات عائلها . جاءت تبحث عن عمل .

وحين دخل البيت شاب جميل . يقف الصقر على زنديه قالت زهرة :

_ لا تنزعجوا . إنه زوج أختى . يتقن أعالاً كثيرة ولكن !

واهتزت قلوب النساء:

_ ماذا يا زهرة ؟؟

_ يريد بيتًا قريبًا مني . ولا أجد .

لم يدم حزن زهرة أكثر من أسبوع . كان صاحب أحد البيوت يترك بيته ويؤجره .

كثر أقارب زهرة . يأتون . لا أحد يتساءل كيف يأتون . وأى ريح تحملهم . الحي غارق في طيبته . وفي الترحاب . اليدُ الآتيةُ «تسد العين» تعمل . تنتج .

وتبدع . لا تكل ولا تتذمر . لا تكره أن تؤمر فتطيع . الكل يشكر زهرة التى تكرمت على الحيى . فيكرمونها . أى بيت تختاره زهره يفرغونه . للأنساب . ثم دفعت زهرة مبلغاً كبيراً واشترت البيت . وحذا حذوها كثير من الأقرباء . امتدت بيوتهم على طول الساحل . ولكل بيت باب يشرع . لأن هواء البحر الذي يناسب زهرة يناسب كل الأقرباء والقريبات . الذين صاروا من أهل الحي . من صلب الحي . وأحبهم كل الحي .

وحدها أم محمد . تضرب كفا بكف . ويبرعم الحوف في صدرها تتنهّد :

«لا حول ولا قوة إلاّ بالله. لقد باعوا البيوت».

استيقظ الحي ذات يوم على صدى النواح . كانت النساء الغريبات · متشحات بالسواد . سيولاً . . تصب في بيت زهرة . تساءل الحي ما الحبر ؟؟

جاء الجواب :

ــ مات لزهرة عزيز

وفى بيت زهرة ولولت النسوة وضربن على صدورهن وخارج بيتها سكن الرجال . وبكوا .

عشرة أيام متتالية والحزن الأسود يعرّش على الحى . حزن له لون خاص . وعطر خاص .

تعطل الحى . وقبعت نساؤه فى البيوت فكَّرْنَ أن يذهبن لبيت أم محمد . استقبلتهن وفى الحاطر عتاب :

_ طالت غستكن

- _ شغلتنا الحياة ياأم محمد.
 - _ بل شغلتكن زهرة . ِ
- _ نحن نحبك ياأم محمد . ولا نستغنى عنك . ولا عن مشورتك .
 - _ ما الذي يقلقكم؟
- _ الحي معطل . الرجال الغرباء على الساحل يبكون ، والنساء في بيت زهرة يُولُولُن . لا تعرف معنى لهذا الحزن يا أم محمد .
- لتعرفوا أن لكل حزنه . أحزاننا غير أحزانهم . هذا العزيز الذى مات سيحزنون عليه كل مرة عشرة أيام . ونحن ندفن موتانا . نؤمنهم الله . ونترحم عليهم ونكره الحزن . والسواد .
 - ـ كل البيوت سوداء يا أم محمد .
- ـ كانت بيوتكم لكنكم بعنموها صارت الآن لهم لا يحق لكم الاعتراض على ألوانها .

وتنهدت أم محمد .

سمعت النسّاء تنهيدتها تشق صدرها . وتفر إليهن . همسات تخرج من أفواه النساء . فيها ندم . . وفيها خوف وفيها تردد فى السؤال :

_ ماذا نفعل يا أم محمد ؟؟

ومن قلبها نبعت أذرع حنان . شبكت النساء إلى صدرها . قالت ولغتها أغنية تصدح : ـ أنتم أبناء حيى . أهلى . وناسى . أعرفكم فكونوا حذرين . اغلقوا البيوت دون كل غريب . واحضنوا البحر الذى من مائه تشربون .

بكت النساء

بكت أم محمد.

اختلط ملح الدموع . صار حبة لؤلؤ تُذكّر بوجه ذلك البحّار القديم الذى صنع السفينة .

* * *

منذ دخلت زهرة الحى . وعيون أم محمد ساهرة قلقة لكنها الليلة غيركل الليالى . لقد جاءتها نساء الحى . وقد بدأت عصافير الحوف تبنى أعشاشها فى قلوبهن . وقلوب رجالهن . جنن يفتحن القلب ، والجرح . فتسيل الأحزان وتفتق القلق . أكثر فى عينى أم محمد .

هم ناسی .. وأهل حیی . هم أولادی . يأسفون بعد الخطأ يطلبون مشورتی .. وآه

صفقت كفًا بكف:

ما باليد حيلة ياعيالي.

حملها الأرق إلى البحر. هجعت على رملة. خلعت ملفعها وانسدلت ضفائرها الشائبة حبلاً حنونا يَودُ لو يضم الشاطئ كله إليه.

امتد بصرها الضعيف إلى البعيد . تذكرت زمنها الراحل . والدها الذي كان يأتى بعد سفر طويل يجمل رائحة البحر ضاحكًا لينصر .. أو عابسًا لفشل .

وزوجها الذى تبع أباها وركب البحر . عشقًا ينتقل بالدم . تحس هواه يسرى مع النسمة داخلها . تتنشق روائح «الغاصة» (٥) . وتسمع صدى زغاريد النسوة . وفرحة العودة . المراكب البيضاء تلوح أشرعتها وترقص . من هنا كانت تجىء لا من هناك .. والبحر واسع يتلألأ تحت شعاع القمر وعينا أم محمد تعانقانه . وتنزرعان فيه كأنها. تصل إلى العمق . لونه تحت الضوء الحانى صافيًا .. وهى تتابعه .. و .. ماذا هناك ؟

عيناها تصطدمان بأشياء تتحرك.

استقامت أم محمد . لملمت جدائلها الشائبة وغرست النظرة الضعيفة صارت نظرة صقر . مراكب تدنو . ولا تصل ، هى تراها تنزف خيالات متحركة . تندلق فى الماء . يتطاير الرذاذ . أسماك تلك أم حوريات ! أم تراها شياطين ؟ خفق قلبها . وإنهار جسدها الطيب إلى الرمل ثانية . توسدت ذراعها . قالت :

لن أتحرك سأرى ما الذى يجرى فى البحر . أى ريح تأتى وأى شىء تنزفه ؟ الخيالات تتحرك هارعة إلى الشاطئ . ثم خطوطا خطوطًا . . إلى الأبواب المشرعة . . .

قناديل حمراء تتدلى تعابثها الريح الحفيفة وحين تدلف الخيالات تطفأ القناديل . وتغلق الأبواب .

华 林 林

فى الصباح . . وجد الناس باب بيت ام محمد مشرعًا . انهمروا إليه . هم يعرفون أن أم محمد لا تشرع بابها إلاّ إذا كان لديها أمر تود الإفصاح عنه .

أعلنت أم محمد عن كل مارأته . وأنبلجت العيون خائفة غير مصدقة . لكن الناس ما اعتادوا منها الكذب . ولا الحداع . هي أمهم الكبيرة . وهي القلب الأليف الذي إليه يهجعون .

كل الآذان أُشرِعَتُ للخبر الكبير. حتى آذان زهرة. والأقرباء.. ثارت..ثاروا.. صرخت في الناس:

ـــأم محمد خرّفت .. مجنونة .. تحلم ..

وصرخت مرة أخرى:

_ إنها تتبلّى علىّ وعلى ناسى .

صَدّ عنها الناس ، حملت جسدها الرائع وثورتها وذهبت إلى بيت أم محمد تبعها الأقرباء الكثيرون ملأوا الشوارع بالهياج .. وبالصياح .

وقعت عينا زهرة على بيت أم محمد .

هي المرة الأولى!

خرجت أم محمد هادئة . واثقة . مبتسمة . شعاع منير ينبع من كل الوجه الذي اعتاد الطيبة . وعاش في سلام . رفعت ذراعها لتوقف السيل . فتدلى كُمُّ ثوبها المشغول «بالزّرى» (١) التمعت عليه أشعة الشمس . أثار وهجًا نقاطًا ذهبية شعت في المكان . وعلى الوجوه الحاقدة كسرت الأشعة العيون . لكنها لم تكسر اللسان . صرخت زهرة في وجه العجوز بكلمات فاسقة . فوجيء أهل الحي . كأن الصرخة لطمت كل الوجوه ، "تجمعوا حول أم محمد . حول جدران البيت الطيني التصقوا يحمونه . وبعضهم وقف سدًّا .

كانوا قلة كانت زهرة والغرباء أكثر. لكنهم وقفوا ، هيأوا الأذرع لتدافع عن أمهم .. وجدار البيت .

شتمت زهرة. عيرت أم محمد بعجزها. عيرت أهل الحى الذين استكانوا وتعالوا .. عيرتهم بكل جديد جاءت به اليهم . عيرتهم بأنها بأموالها غيرت .. وبدلت فى الحمى . وفى البيوت .. لم تأت أم محمد بحركة .

لم تبك.

لم تلطم خديها .

لم ترد على السباب ... ولا التجريح . كل ما يحدث أمامها .. وما يقال . كانت تعلم أنه سيحدث . لكنها لم تستطع أن تقنع الناس به .

النساء باهتة وجوههن ، والرجال كاظمين الغيظ ولكن ! حين صرخت زهرة مهددة :

_ سأطردكم من هذا الحي .

اشتعلت الثورة في النفوس. صرخوا بصوت واحد:

_ سنطردك يازهرة .

هزت ضحكتها المكان.

تطلع الناس إلى وجه أم محمد الباكي بصمت .. تابعوا نظرتها الحزينة .

كانت تعد البيوت الممتدة على الساحل.. وتابعت كل العيون.... كل البيوت .. كلها .. ليست لهم

وهزّت أم محمد رأسها .

(١) شيخوه: اسم علم لامرأة. وأصله «شيخه».
 (٢) الحفافة: إزالة شعر الوجه والحاجبن.

(٣) ملفعها: غطاء الرأس لكبار السن من النساء ولونه أسود.

(٤) السّدو: أعمال اليد البدوية.

(٥) الغاصة : الغواصين .

(٦) الزَّري: خيوط القصب المذهبة التي تزين ملابس النساء.



وحدده البظّلُ يسقى

لم يكن « محيسن » أعور . لكنهم فى ذلك الحي البعيد عرفوه بهذا النعت منذ تعرضت عينه لذلك الحادث الألم .

كان صغيرًا . يحلو له أن يُحوّس بين الرجال الذين يتحلقون عند باب بيتهم . يتبادلون الأحاديث ، يسمعون شكاوى بعضهم بعضا ويتداولون شئون الحى . وأحيانا يتحررون من هموم الحياة فتعلو أصواتهم بالضحك حين يطلق أحدهم دعابة ما . . أو يعلق آخر على حادث مضحك خلال النهار .

ومحيسن طفل خدوم .. وذكى . كان يسرع إذا سمع صوت أمه تناديه من خلف باب البيت لتناوله الجمر المتوقد . فيعطيه بدوره لوالده الذي يقوم بتوزيعه على «كدو» (١١) الرجال .

يقال أن محيسن ذات مرة عبث بخرطوم الكدو فانزلقت جمرة ، سقطت على جبينه وأخذت سيرها حتى عينه . فاحترق جزء من جفنه . حملوه إلى « أبو فاضل» الذى كور عجينة ذات رائحة غريبة وضغطها على عينه وربطها . وأمرهم ألا يفتحوها وأن يعودوا به بعد أسبوع ليفكها بنفسه .

فى الموعد المحدد رفع أبو فاضل الرباط. فبدت عين محيسن « مشبونة » إ لا يكاد يفتح جفنها .

صرخت أمه حين رأته وقد تجمهرت أمام باب « أبو فاضل » مجموعة من الأولاد :

ـ ياويلي .. صار الولد أعور .

وطرقت الكلمة أذنه وعشعشت في فؤاده .

华 华 华

حين انتقل إلى هذا الحي تصور أن الأولاد فيه لن يفطنوا « لِعَوْر » عينه . لكنهم سرعان ما أخذوا ينادونه به . فيحس بالألم والحنجل لكنه لم يكن يجرؤ على معاتبة أمه التي نطقت بالكلمة دون قصد منها ، غير أنه ذات يوم فاضت نفسه بالحزن فهرع إليها شاكيًا ودموعه تتسابق على وجنتيه :

ـ لن أخرج إلى الشارع بعد اليوم.

صفقت على صدرها:

ـ لماذا يا محيسن ؟؟

ــ الأولاد ينادوننى بالأعور . وهذا يؤلمني .

هاجت. قالت له دون تفكير:

_ « أولاد الكلب » اسمع . إذا قال لك أحد منهم هذا فخذ حجرًا وأعور له عينه .

وسمع أبوه هياجها فصرخ:

ـ تعلمين الولد الحقد . افترضي أنه فعل وأعمى عين أحدهم فما العمل ؟؟

- _ « بالشيطان » لتعمى عيونهم . أم أنك تريدهم أن يكسروا خاطر الولد ؟؟ أهمل الرد والتفت إلى ولده محذرًا :
- _ اسمع يا محيسن . لا تسمع كلام أمك . أنت لست أعور وحتى لوكنت فليس عيبًا أن تكون في الإنسان عاهة المهم أن تجعل الناس ينسون عاهتك . أن تكون إنسانًا جيدًا . شجاعًا . عندها يجبونك . ويحترمونك . ولا يُعايرونك بعور عينك .

سرحت عينا محيسن إلى البعيد. تخطت جدار البيت وأخلت طريقها لا تصبطدم بشيء. وعلى شفته لا حت ابتسامة عذبة. يومها تعلّم الدرس الأول.

* * *

عندما لمح « جَسّوم » جرادة في قلب الحفرة صرخ :

_ الله .. هذه «مكنة» (٢) . سأنزل وآخذها .

حذّره الأولاد :

- _ لا تفعل يا جسوم . الحفرة رطبة . البارحة نؤل مطركثير. سخر منهم :
 - _ سأنزل ياجبناء.

وانزلق إلى الحفرة . وماكاد يلقى بنفسه حتى غاص إلى نصفه بالطين فصرخ . سخر منه الأولاد . لكنهم حين بكى خائفا تراكضوا يستغيثون وأصواتهم تسبقهم :

_ أين محيسن ؟ وحده سينقذ جسّوم .

صدى الصراخ والنداء طرق أذني محيسن الذي كان بجوار والده في المسجد .

قال في سره:

_ الملاعين .. حتى صلاتى لا أستريح فيها . ماذا حدث ؟؟ ركض وغترته المهلهلة تتطاير معه . وصل ، وإذا عيون الأولاد تستغيث . سبقوه إلى الحفره . وهو وراءهم لا يدرى ما الأمر . لكنه حين ألتى النظرة داخل الحفرة . فهم أن الأمر يحتاج لشجاعته حقًا .

صرخ فی جسوم الباکی:

_ ما الذي أنزلك ؟

تطلع إلى وجوه الأولاد بشكل اتهام. لكنهم تدافعوا :

_ قلنا له لا تفعل.

_ لم ندفعه إليها .

ـ أراد أن يأخذ الجرادة .

ـ تصور نفسه محيسن الشجاع .

أسكتهم محيسن:

ہے اخرسوا جمیعکم .. ہیا .

سحب غترته ، أَذْلاها إلى جسّوم :

امسك بها جيدًا. وسوف نزعبك .. هيًا.
 أمر الأولاد بأن يتحركوا. لكن أحدًا لم يفعل. قالوا:

_ نخشى أن يسحبنا هو . نصفه مدفون ، والطين غدّار .

بصق على الأرض:

- ــ لعنكم الله ياجبناء : ثم خاطب جسوم :
- _ سأزْعَبُكَ وحدى . هيّا .. تشجع .

أخذ ساعداه الرشيقان يشدان ، ولهائه يعلو وحين ارتفع جسوم قال له : الآن . ارفع قدمًا واحدة . اسندها إلى جدار الحفرة تعكز عليها وارفع الثانية . وحاول الصعود .

تشجع جسّوم. وخرج من الحفرة. كان الطين يلوث ملابسه. وأقدامه ويديه. اقترب ملهوفًا نحو محيسن ليقبله شاكرًا لكن الآخر ردعه:

_ إياك أن تندفع مرة ثانية خلف الأشياء الصغيرة. هل أنت مجنون؟ _ لن أفعل. ولن أنسى معروفك.

تراكض الصبيان. أصواتهم الهاتفة تتخالط:

ـ عاش محيسن الأعور .. عاش الشجاع .

مسح محيسن على عينه المشبونة وتنهد سعيدًا وفي داخله كان السؤال يلح بلهفة:

_ ترى: هل سيصل الأمر أمّونة!!

* * *

يوم شبت النار فى بيت « صالحة المحنونة » لم يكن أحد فى الشارع . محيس وحده كان يمر ضدفة . وقد أرسلته أمه إلى بيت قريب ليحضر لها « مُلْمُصًّا » (٣٠ . شاهد صالحة المحنونة يتدلى لسانها الأحمر وقد هبت مذعورة إلى الشارع عارية القدمن مشقوقة الحلباب :

_ حريقة .. يا الأجواد .. حريقة .. بقرتى تحت العريش ، ستأكلها النار .

نسى محيسن ما أوصته أمه والتقط طابوقة أخذ يطرق بها أبواب البيوت المغلقة ، فتراكضت نسوة .. وصبية جاءت لهم أوامر أمهاتهم :

ــ أسرعوا .. أخبروا الرجال .

محيسن لم ينتظر . دخل البيت . خطوته السريعة تتجه إلى العريش كان خوار البقرة يأتى مذبوحًا . النار تلتهم بعض القش والأخشاب المتراكمة فى الزاوية ويعلو دخان أسود .

لف محيس غترته حول رأسه . دفن وجهه ما عدا عينه السليمة . اندفع إلى مربط البقرة . وفكه بسرعة وشجاعة . ثم سحبها وراءه وخرج بها إلى الشارع . سلمها لصالحة . تحول رعبها إلى فرح . أمسكت بمحيس . حاولت أن تقبله لكنه سحب نفسه من بين يديها وانفلت إلى بركة الماء في الحوش يزعب منها ويصب على النار .

لكن النار الجائعة امتدت إلى سقف العريش ولسانها الأحمر ظل يفح ولا يفيدها الماء القليل . فجأة ... طرقت الأسماع أجراس سيارة الإطفاء .فترك محيسن الدلو وخرج مستريحًا ينظر إلى صالحة تحتضن بقرتها الوحيدة بفرح . بينا سؤال ملهوف يتكرر بداخله : هل ستعلم أمونة بما حدث ؟؟؟

* * *

ذاعت فى الحى والأحياء الأخرى شجاعة محيسن. تكررت له مواقف كثيرة . اعتمد عليه كثيرون فى أعمال تكاسلوا عن القيام بها . وكان لا يتذمر ، بل يشعر بالزّهر والفرح لهذه الثقة غير منتظر لشكر أو مكافأة من أحد .كل ماكان يهمه هو أن تصل أحباره إلى أمونة . وحين يداعبه هذا الأمل ينسى عينه المشبونة ويتطلع إلى الأفق البعيد وكأن شعاعًا من الأمل يلوّحُ لهُ وحده .

* * *

ذات عصر تحلّق الأولاد . ضحكوا . . تحدثوا . . تباروا فى الوكض على قدم واحده . وفى لعب « التيلة » . وكان محيسن يتفوق ، وفى كل مرة يذكرهم :

_ الأعور غلبكم .

فتحمر وجوههم خجلاً ويبتسمون :

يا محيسن . نحن لا نقصد أن نعايرك .

يرد على ابتسامتهم:

ـ أنا لا أزعل . أعور . أعور . المهم أنني أرى .

ويرون عينه تسرح فيصمتون .. يتطلعون إلى وجهه .. إلى عينه المشبونة التى تعانق باب بيت أمونة فى آخر الشارع . يتركونه سابحًا فى حلمه . يتبادلون نظرات ذات معنى . ثم يلكزه أحدهم فى ذراعه :

_ تحبها يا محيسن ؟؟

يخفض بصره .

يقول آخر :

_ هي ليست جميلة .

يرفع رأسه محتدًا :

ــ أنفها طويل.

_ خلقة الله .. هل تعترضون على الله ؟؟

- ـ يا محيس . يقولون أنها لا تزال تتبول في قواشها . يذافع بشدة :
 - _ كذابين. من قال لكم ذلك؟
- _ الناس كلها تعرف. يدخلون إلى بيتهم فيشاهدون فراشها منشورًا تحت الشمس تفوح منه رائحة عطنة.
 - ـ هذا لا يعني أنها تتبول . الرطوبة تعطن كل شيء . حتى أقواهكم .
 - _ نحن لاندري لماذا تحبها يا محيسن. رغم أنها متعالية ومغرورة.
- أحبها لأنها أم الحبر. سمعنا أخبارها ونحن فى حيّنا القديم. قالوا أن يوم ولا دنها كان يومًا عجيبًا. تفجرت السماء بالمطر، فانتضرت الأرض، وزاد الحبر، وتكاثرت الماشية، وانتعش التاس يعد سنوات من الجدب مرت. وبعد ضيق عانوا منه. فكيف لا أحيا ؟؟
 - كثيرون هم الذين يحبونها يا محيسن. وهي لا تميّزك. وريما لا تحبك. يبتسم ابتسامة حزينة:
- لا يهم يا أولاد . المهم أن أحبها أنا . أن أتذكر دائمًا أنها مصدر الحتير اللذى جاء حبّكم والأحياء الأخرى وصدقونى . لو طلبت أمونة حياتى فسأموت لأجلها .
 - ضحك الأولاد هازئين:
 - ـ لهذه الدرجة تحبها . إنك مجنون .
 - هبّ واقفًا :
 - _ قولوا ما تشاءون «أمونة» تستاهل الحب ـ
- ومشى . عيناه ترفرفان نحو البيت . فى قلبه كان ثمة رجاء أن تبق . حتى وإن لم يهمها بقاؤه .

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تابع الأولاد خياله حتى ابتعد. وتداولوا الحديث:

_ هل معقول أنه يحياكل هذا الحب ؟؟

_ يقول إنه امستعد أن يموت الأجلها .

_ كناب

دافع آخر :

ـ لأ.. محيس صادق . إنه شجاع .

ـ إذن إ نمتحن صلقه وشجاعته .

* * *

في الليل، تحلقوا ثانية قالوا له:

_ يا محيسن .. يعد ذهاياك خرجت أمونة . قلنا لها عن حبك واستعدادك للموت الأجلها و

خفق قُلبه ، تهال وجهه أكله :

_ أي والله أنا مستعد.

لكتها يا محيسن لم تصدق. قالت إن كثيرين يقولون مثل هذا الكلام ولكنهم
 لا يفطون .

هرّ كتفيه :

_ هي حرة .

_ لكننا يا عيسن لم تدعها تشك بكلامك . أكدنا لها أنك صادق .

تنهد :

_ الحمد لله . صلقت إذن .

ـ لا يا محيسن . لقد اشترطت شرطًا لتصدق .

rerted by liff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قفز من مكانه:

ـ بالله عليكم .. ما هو شرطها ؟

ـ قالت إذا كان يحبني حبًا صادقًا فليأكل الزجاج.

ارتخى جسد محيسن . أحس وكأن سكينًا حادًا يطعنه . هذا شرط غريب . هل يعقل أن تكون أمونة وجه الخير قاسية إلى هذا الحد حتى تشترط شرطًا كهذا ؟

خرج السؤال من فه وقد انتفخت جفنه المشبونة:

_ آکل الزجاج ؟؟

أحس الأولاد بغصّته وذعره :

_ ها .. لن تقبل شرطها بالطبع .

لمح شماتة تطل من عيونهم ونظرات تحد تكاد تصفعه منتصرة عليه . فقرر فى لحظة شجاعة ألا يتراجع :

_ بل أقبل شرطها .

شهق الأولاد :

۔ هل أنت جاد فيما تقول ؟؟

قال بثقة :

ـ كل الجد.

ــ ومتى ستفعل ؟؟

متى شئتم .. على شرط أن تبلغوا أمونة .
 و وعده الأولاد بذلك .

* * *

دخل البيت واجمًا على غير عادته . انزوى في طرف الغرفة يعابث أطراف

دخل البيت واجمًا على غير عادته . انزوى فى طرف الغرفة يعابث أطراف قدميه ، يفتت بعض الطين الذى علق بهها . وفى ذهنه تتبارى سؤالات وظنون . وفى قلبه يتوقد حزن كبير طفحت آثاره على وجهه . ولا حظت أمه ذلك . فاقتربت منه بحنان :

- _ مابك يا محيسن ؟؟
 - ـ لاشيء.
- _ هل عايرك أحدهم بعينك ؟؟
- ــ لم يعد أحدهم يفعل. إنهم يسمونني الشجاع.
 - ۔ إذن ما بالك حزينًا هكذا ؟؟

تطلع إلى وجهها الحنون . ود لو يقفز إليها ويرتمى فى أحضانها ويعترف لها بأنه يحب سواها ويتعذب . وأن ثمنا للحب مطلوب منه . وأنه سيفعل .

كاد لسانه يسعفه لولا أنه تذكر مدى حبها له . وأنها لو عرفت فستثور وتخرج فى الغد إلى الأولاد تشبعهم ضربًا . أو ... ما يدريه فقد تذهب إلى بيت أمونه وتخبر أهلها فتفضح البنت . وتهب زوبعة فى الحى لا يسكتها إلاّ الدم . طمأن أمه . واستكان فى فراشه ، مرارة فى داخله ترسم جذورها وأوراقها على صفحة وجهه وأمام عينيه تمر صور كثيرة .

بريق الزجاج الذى رضى بأن يأكله ليؤكد حبه يتوهج أمامه فيرتعد. وجوه الأولاد التى نطقت بالتحدى لشجاعته ، هل يدعها تنتصر عليه ؟؟ وجه أمونه الأسمر الذى تدفقت مع إشراقته كل الخيرات هل حقًا سيفعل ؟؟ قد يكون الموت !!

_

لا ... لن يفعل ... ليذهب الأولاد إلى الحجيم.

لكن ماردًا استيقظ فجأة يؤنبه ، ووجه أمونة يشرق كشمس الحياة . عب أن أفعل . لو خانتني الشجاعة مرة فإن ثقة الأولاد بي ستنهار . وستفقد أمونة أملها بي . كما فقدته بكل من يقولون ، ولا يفعلون .

* * *

حين غابت الشمس اجتمعوا . وما أن لمحوا محيسن قادمًا حتى تقاقزوا من . أماكنهم غير مصدقين . أقترب مزهوًا مبتسمًا :

_ ما .. مل نبدأ ؟؟

تطَّلُعوا إِلَى وَجُوهُ بَعْضَهُم ، عَجِبُ يَغُوحِ مِنَ النَظُواتِ الذِي تَركزتَ عَلَى صَّوَةُ يحملها محيسن .

جلسوا.

تربّع محيسن بينهم . حلُّ الصرة .

_ ما هذا ؟؟

فى صوت واحد نبع السؤال.

أشار بيده إلى الأشياء:

- كما ترون .. تمر ، قطعة زجاج . و . . هاون . لم ينتظر سؤالات أخرى . أخذ قطعة الزجاج وأسقطها في الهاون الصغير . وبدأ يدقها حتى نعمت . وضع بين اصبعيه قليلا من المسحوق ، عرضه عليهم :

نے ما رأیکم هل یکنی هذا ؟؟

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم يردوا عليه ، كانوا مصعوقين في انتظار ما سيفعل ، ألتي على وجوههم نظرة تحد . ثم أخذ يفتح التمر ، يسحب منه النواة ويلقيها . وحين انتهى بدأ يعجن التمر بالزجاج . يصنع كرات صغيرة حتى اكتملت لديه سبع كرات تطلع اليم :

- _ عل تأكدتم الآن أن الزجاج داخل النمر؟؟ أومأوا برؤوسهم. قال صبي :
 - _ هل ستأكلها حقًا ؟؟ قال بشجاعة اعتادها :
 - _ طبعًا .
 - صاح آخر:
 - _ لا يا محيسن .. لا تضر تفسك .
 - رفض خوفهم :
 - ۔ الزجاج صار ناعمًا .. لن يضرفي . اعترض آخر :
- _ لكته زجاج . سيمزق مصاريتك وما يفيد أن قاطعه محيس :
- مها یکن . ما دامت آمونة قد اشترطت فسأفعل . عندما تأکد للأولاد اصراره الشدید أصابهم الملع ، ارتعشت قلوبهم . لقد أرادوها مزحة صغیرة لکته صدقها . وسیجازت عیاته . خافوا علیه ، الشجاع الذی کثرت أفعاله قد یموت فعالاً .
- التعلموا عنه . أخلوا يتشاورون . ثم ركضوا نحوه . شكلُّوا دائرة حنونة :

- ـ يا محيس . لا تفعل .
- حاصروه . شدوا على جسده . حاولو أن يأخذوا كرات التمر المشحونة بالموت . لكنه بشجاعة وقوة تخلص منهم وأصواتهم تعلو :
- ـ يا محيسن . . لقد سخرنا منك . أمونة ما قالت أى شيء ، نحن اخترعنا الكذبة لنختبر مدى حبك لها .
 - لم يصدق:
 - _ كذابين. أمونة اشترطت. لكنكم الآن خاثفون.
- يا محيسن ، لا تضح بنفسك . نحن نريدك بيننا . لقد علمتنا ألا نندفع وراء
 الأشياء الصغيرة .
 - فرقت في عينه أشعة حادة:
 - ولكن الحب ليس شيئا صغيرًا . وبالذات حب أمونة أم الخير . حاولوا أن يقنعوه :
 - _ إنها لا تعلم بحبك .
 - رفع رأسه عاليًا . فتح عينه المشبونة . قال بثقة :
- _ ولكنى أحبها . وهذا يكنى . . هيا . . عُدّوا لى من واحد إلى سبعة . رفضوا . . صمتوا . . ولم يحرك الصمت إلا صوت جرش الموت تحت أسنانه . مات الأعور .
- وحين تحلق الأولاد حوله كانت سحابات صفراء ترتسم على وجوههم . وهم يلقون عليه نظرتهم الأخيرة .
- لاحظوا أن عينه المشبونة كانت شبه مفتوحة . ومنها يطل ظل ابتسامة .

استمر بعد ذلك يلازمهم كلما مروا أمام بيت أمونة . ولم يجرؤ أحد منذ ذلك اليوم أن يعلن حبه لها .

إشارات:

١ ـ كدو: الأُنجيلة.

٧ ـ مُكُنَّة : أنثى الجراد . أما الذكر فيسمونه ـ عصفور ـ .

٣_ ملمص : أداة معقوفة تستخدم لإخراج الدلو من البئر.



رأسان .. وجسد

هو ذا النور يأتى معربدًا يخترق العين كسهم أزرق ما تكاد تبتلعه حتى يرتد من حيث جاء كمجنون تطارده عاصفة من الأيدى .. يعود مرتطمًا بالجدار فيتعانق والضوء الأحمر .. ينفرشان على السقف كطرحة عروس .

أميل إليه .. أهمس:

ــ مل سنبق طویلاً ؟؟ یشد علی یدی :

ــ استمتعي بوقتك .. الليل طويل .

_ أكاد أختنق

_ سيبدأ الآن استعراض الضوء .

* * *

تتحول الألوان مستطيلات متداخلة .. تتفرع منها مربعات .. تكبر .. تكبر .. وحين تمتد نحو الجدران المغلفة بأرق أنواع الورق .. تتحول إلى دواثر

وتعود ثانية إلى السقف .. ثم تنزلق إلى الأرض اللامعة بشكل حبات .. من الزُمرّد .. تدوسها أقدام الراقصين فتنتفض ثانية ترفض الذل وتعلو إلى السقف .. تصير أنياب ثعابين تواصل زحفها على كل الأطراف . تلعق ألوان الوجوه وتضفى على أزياء النساء بريقًا يغيّر ألوانها فتصير أزهى وأجمل .. أما الشفاه المصبوغة فتكشف كل شفة منها عن مطلب شهوانى .

أتململ .. أعيد الهمس:

- _ شفتای جافتان .
 - _ بلليها بالماء.
- _ الماء بارد .. والجو خانق .

مال محتضنًا كتني:

ـ ياحبيبتي .. استنشقي ليدخل الهواء إلى صدرك .

* * *

صدري محروس بشال من الحرير...

وتلك الصدور التي أمامي شبقها ينفر.. وآهاتها تشق الثياب.

_ لوكنا في مكان آخر..

_ هي ليلة وتمضي .. لا تفسدي على نفسك المتعة .

متعة ؟ [[

ما المتعة في أن أراقب هذه الألوان الصارخة المستغيثة التي تهاجم العين لتخطف البصر؟؟

ما المتعة فى أن أراقب هذه الصدور العارية المأسورة بالعقود وبالسلاسل ؟؟ من أين جئن بهذه المصاغات ؟؟

كيف تتحمل أعناقهن هذا الأسر؟؟

ولماذا يتمادين في استعراض كل ما تحفل به خزائنهن؟

كأننى داخل زنزانة حديدية . . يهطل أننى عرقًا . . تفوح من الراقصين روائح مرشوشة بإسراف تحت الآباط وخلف شحمة كل أذن . . وما بين الساقين مخلوطة بروائح الجسد الذى لا يستحم إلاً فى مناسبات كهذه .

تبتلع رئتاى الروائح .. وعصير الدخان المتطاير .. تتغذيان بالعرق .. وفوح الكؤوس المنوّعة .. وبوح الكلمات الملجمة الراغبة في الانفعلات .. لكنها تخرس داخل حلوق أصحابها .. فتفوح لغة أخرى ..

أنامل تتشابك بعرقها ... عرق عزّ مفاجئ .. وخدود تتلاصق ألوانها .. وعيون تتناجى مناجاة محروم .. الموسيقى هنا تصادر كل صوت .. فيصير لكل شيء عشقه الحناص .. حتى سيقان النساء الملمعة التى تبتلى برعشات تسرى حتى لتكاد تصل بهن إلى قمة النشوة .

أحرك ساق الباردة .. ألامس ساقه القوية :

- _ هل نتحرك؟
 - _ لا يجوز.

قالت عيناه بعتاب واضح أخرس عندى كل رجاء.

* * *

لا رجاء ...

ولا أمل فى المحاولة ...

استسلمت ..

أخذت أتابع المشاهد أمامى .. الحدم يحومون حوق الطاولات كالدبابير .. تحط أكفهم فوق الصحون تهيل أشكالاً من المقبلات .. ترفع كؤوساً .. تملأ كؤوساً .. تمسح أطراف صوانى الحضار الطازجة .. لم يكن هذا موسم بعضها لكنها جاءت . فكم دفعوا ثمنًا لها ؟؟ ومن أين جاء الثين ؟ كل شيء متوفر هنا .. حتى «لبن العصفور» الذي تحلم به صبيات اليوم كمهر يقدم لأب جشع يهوى صفقات البيع .

الضوء يداعب المكان بشراسة يغزو كل بقعة بتحد وقح ... والصدور والهة لحمها بارز كبضاعة خاسرة تبحث عن مشتر جائع ... الجرسون يقترب ...

يدس فمه ذا الشفة الغليظة داخل أذنى :

ـ الطلب سيدتى ... سكالوب ...؟ ستيك؟ تقزز جسدى

إحداهن تقترب من طرف البيست . . تدور بجنون وهى تراقص رجلها كبقرة « صارف » فيبدو فخذاها المشحان .

الجرسون يكرر سؤاله مصطنعًا الأدب .. فأنتبه إلى أن فه لا يزال يحاصر أذني .

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

_ هيه ... لحم ماذا ؟ بقر ؟ ضأن .. أو أرانب ؟؟ سألته .. فضحك ببلاهة . . . تعود أن يفهم رواد هذا المكان الرفيع ماهو الأسكالوب ! والفيليه .. و .. الستيك .. وأنا بلهاء إذ أوجه له هذا السؤال .. لكنه يرد وكأنه يمنحنى فرصة معرفة شيء جديد .

ـ ستيك عجل..

هززت رأسي:

_ طيب ... ستيك .. لكن سوّه جيدًا .

* * *

بانتظار اللحم

لحم شفتی بین اسنانی ...

تری ۱۶ أی لحم سيأتي به ۲۶

لقد تاجر بعضهم بلحوم الحمير.. والقطط الضالة والكلاب السائبة .. وفي هذه الدنيا هناك من يذبحون بعضهم بعضًا .. وقد يعجبهم هذا النوع من اللحوم .. من يدرى مالذى سيدخل معدتى هذه الليلة ؟؟؟

* * *

الليل أحسه طويلاً شاقاً .. وجسدى مستسلم رخو يتراقص عليه الضوء العنيف ، من هنا يأتى كأنه سيف يبتر الذراع فأهتز .. من هنا يضغط على الصدر ... فأتصور أخطبوطًا عشق صدرى فجأة .. وجاء يصادره لنفسه وهاهو

ذا ... بنفسجيًا كلون دم معتق يأتى من الأعلى .. خطًا رفيعًا حادًا ينصب على رأسي فيشقه ... فينشطر كرغيف ساخن .

* * *

صار لى رأسان ... يستندان على رقبتى الصلبة الثابتة على جسدى ... ينفصلان شيئًا .. يتابع الأول بنظراته الضوء البهلوان ... يتسلى بالنظر إلى الجهاعة ، يرضى بحصار الواجبات الاجتاعية . هذا السلك الشائك الذى لو فررت منه لتمزقت أواصر الصداقة . بينا رأسى الثانى يطوف بأحلام الهروب .

في هذا الكهف ... تموت الحياة ...

سنابل الشمس لاتدخل .. لا تطرد جراثيم البذخ والعهر السارية ... فيستشرى المرض في الصدور ، في الضهائر .. في الأجساد .. فتنتعش اللذات وتنتصر الشهوات .. وتقرر النساء الهاربات ألا وقت لتربية الأطفال .

تتوتر أعصاب رأسي . . يميل على الرجل الذي يغرق في يقظة السبات :

_ هل سنبق طويلاً ؟؟

ـ نحن مدعوّان ولا يجب أن ننفصل عن الجاعة .

* * *

رأسى المفصول يتمرد .. يبغى انفصالاً عن توأمه .. يبدو الاشمئزاز من الأشكال الضوئية المرعبة رغم روعة تكويناتها واضحًا على قسماته يؤكد لنفسه :

«كل هذا لا يريح . الحياة فى الحارج رعشة يومية لذيذة فلم الانتظار ؟؟ »

يتلفت رأسى .. يخشى أن يلمح أحد الفكرة فى داخله .. لكن عيون الجميع وعقولهم سابحة فى أجواء المكان .. هائمة بروائحه الممتزجة . ينتهز رأسى الفرصة .. ينفك عن الآخر .. ينسل من على رقبتى إلى الأرض .

* * *

رأسى ينتبه لرأسى الهارب ... يتابعه وهو يسير متعثرًا بين الطاولات المزكومة باللذة .

رأسى يشفق على رأسى . . يخشى أن يفقد السيطرة على نفسه فيتعثر . . وتدوسه أقدام الراقصين . . أو أحذية الرواد الذين مازالوا يتهافتون على المكان .

أحذية الخدم السريعة ترحم الرأس .. توسع له الطريق . بعضهم يداعبه .. بعضهم يبتسم له مودعًا غابطًا العين التي سترى ضوء الفجر .. أحدهم يدس في ثغر الرأس قطعة لحم .. لكن الفم يلفظها .. يكمل سيره ورأسي الأول قلق يتابع الحطوات .. يخشى أن يقع توأمه بين أنياب الرجال .. أو فتنة النساء أو تتسلط عليه جنيات الليل .. أو تلمسه أطراف زهرة فتغريه بعطرها فيضل طريقه .. لكنه سار واثقًا .. مرحًا جبارًا يحمل فرحة .. يطير بحرية نحو الباب المخملي .. يدفعه .. و ... يهرب .

* * *

هرب رأسي ...

يحسده رأسي الآخر الذي يئن تحت سيطرة الضوء المجنون .. يأكلني الكرسي

المخملي . . كأن آلاف الديدان قد ولدت فيه . . تنبثق في رأسي فكرة . . . تالتمع كالتباع البرق في ليلة شتاء مفاجئ . .

أتلفت .. أخشى أن يثير البرق شهوة الاستفسارات فيخمد التمرد اللذى ولد .. تمرد يدعوني أن أطلق هذا الجسد المدفون إلى ساحة رحية ... إلى حيث كركرة العصافير العاشقة .. وزغاريد النهار اللذى يولد الآن ..

أرفع كفي إلى عنق .. أتحسسه بحذر .. ثم أرفعها إلى قمة الرأس . أهزها أنزلق إلى الطرفين .. أحرك أتأكد أن فتحة العنق توسعت قليلاً بعد أن انفصل الرأس .

أفرح .. أمد أصابعي الرفيعة .. أدسها في فتحة العتق أوسع ... أوسع ... أوسع .

أزلزل الرأس ... يزداد الاتساع .. تصبر فتحة عتق مهبلاً طريًا في لحظة ولادة يتوسع كلما مارست أصابعي عملية طلق صناعي له .. أرخى .. وأشد .. أرخى وأشد . لم يبق الكثير .. هاهي طلقة أخيرة .

ويولد الرأس كطفل يتم .`

أمسك به بكنى .. لا أثر لحدوش .. ولا تعلرات دم .. ولا بقايا عقاط .. أنظر إليه بإشفاق .. ازرعه فى كف واحدة .. كطفل أبله .. بالكف الأخرى أوسع مكانًا على الطاولة المليئة بعشرات الأصناف المتخمة بالدهون ... أضعه فى المكان .. أداعب شفته برقة .. أمسح على شعره .. وأودعه ..

انفلت جسدًا بلا رأس . لاحقة برأسي الهارب إلى الحياة .

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هى ذى الحياة يصدح فجرها .. بدأ الليل يتجشأ ظلمته .. بدت المدينة كعروس خجلى تحت ضفائر الفجر المتناثرة .. تفوح رائحتها عدرية كأن الليل لم يتتهكها بعد . تتفتح بشائر الصباح شيئًا .. فشيئًا .. كأوراق وردة .. تتمطى بين ذراعى عاشقها .. وتهب نسيهاتها الطرية هبوبًا رقيقًا يلفح الوجه كقبلة أم .

* * *

أركض ...

تركض الشوارع بأعمدة النور المنحنية المطفأة .. وتركض الفراشات ... وأوراق الأرصفة ..

أحت ...

يهتف ضوم الصباح .. مولودٌ يوميُّ يسمع العالم صوته ويفرح ...

أتادي

تنادى أصوات الياعة النشطين الطبيين . .

أسعل ...

ينهق حارً دؤوب . .

أتلقت ...

تتلقت أعتاق الشجر المحملة مخيرها .

أصوخ ...

تصرخ الحياة كلها من حولى .. مبكرة .. طازجة ... شهية الرائحة كرغوة حليب درّها الضرعُ للتّو !!

أمضى غارقة نحو قلب المدينة .. هى ذى المساكن المتراصة تلفظ أجساد أصحابها إلى الشوارع المبللة بندى الصباح .. وبول المواشى .. يتوزعون فى الأزقة الضيقة .. أجساد طموحة تعارك الحياة ... مستوية زاخرة بالحرارة .. عرقها مالح رغم طراوة الصباح .. عروقها ناتئة تستغيث بدمائها .

هى ذى الرغبة فى الحياة .. وفى معاركتها .. مفروشة فى لحومهم السمراء التى صقلتها الشمس .. تشققات .. محفورة فى الأكف الحشنة .. وفى الجباة التى تعلو فوق عيون تموج فيها شهوة البقاء ... والعطاء .. رغم التعب .. يتحركون .. لا يستريحون .. لقمة النهار التى تأتى بالآه .. وبالرجاء .

أواصل السير….

أندس في الأزقة اندساس الحيط في ثقب الابرة . أجساد تتوزع تحت جدران الأبنية العالمية .. وعند أعتاب الجوامع المتناثرة مآذنها نحو السحاب .. وفوق الأرصفة . تحمل عاهاتها ، وبؤسها ، وزفرات الجوع ، والعرى . وتحلم بلقمة .. وملابس لعيد يسمعون أنه يأتى .

أتابع أقدامًا عارية لأطفال تشتهى أعينهم الغفوة فى هذا الفجر المتنفس. يتحلقون حول بائع فطورهم اليومى متسابقين إلى الرزق .. مهرولين بعد ذلك إلى الجحور الضيقة التى يتزاوج فيها أهاليهم كالأرانب .. يجوعون .. ينامون .. يستفيقون على أمل أن يندس فى الجحر المنسى رغيف خبز تتقاسمه العائلة بالعدل وتصوم بعده شهرًا .

تدخل إلى جسدى روائح المدينة الحنون .. رغم بؤسها تنغرز في مساماتى .. تدخلها .. تذوب في دمائيي .. فأشبع .. أحس للشبع طعمًا لذيذًا .. أحس امتلات ينسيني رأسي الذي تركته هناك على الطاولة الزاخرة بأشهى الأطباق . وهو يتابع الضوء المتلاعب برشاقة مرعبة .. وينصت إلى الموسيقي المجنونة التي يخرس دونها أي صوت . هل ترى رأسي هناك يتذكر جسدى المنفصل عنه ؟؟ هل يتذكر توأمه الذي فرّ بجلده من ذلك الكهف الصاخب ومن حياة ميتة رغم توهجها .. وصخبها ؟؟ أم تراه فقط ينتظر طبق « الستيك » الذي طلبت من الحرسون أن بنضجه جداً ؟

هل تراه الآن فى الصحن تفوح رائحة شوائه ونضجه ؟؟ هل هو شهى الرائحة كأجساد هؤلاء الكادحين ؟ تستوى الروائح داخل صدرى .. رائحة مدينة واحدة شقها السيف نصفين كما شق رأسى .. فصارت مدينتين .. مدينة تفقد الوعى بصخبها المجنون .. ومدينة تعيد الوعى للصخب اليومى من أجل اللقمة .. من أجل أن تبتى الرؤوس صلبة فوق الأعناق .

* * *

أتحسس عنقي ..

أتذكر رأسى الذى هرب . . أين هو الآن ؟؟ هل ترى عيناه ما أرى فتمتلئان دهشة . . وبهجة وتسبيحًا ؟؟

هل تتحرك فى عروقه نشوة الاكتشاف فيمارس عشقه للأرض الرطبة .. والأجساد العامرة بنشاطها تعانق غصون الحياة الطرية .. تتعلق بأذيال أمل لا تطفأ شموعه رغم هبات اليأس الحارقة ؟؟

أشتهي عناق رأسي .. تبار الشوق سرتي فأسرع أضيب الهواء اللذي يقاً

أشتهى عناق رأسى .. تيار الشوق يهزنى فأسرع أضرب الهواء اللَّذَى بناً يتسرب إليه دفء النهار . أبْصُمُ خطواتى على الأرصفة .. أزجها فى اللَّكاكين وداخل الأبواب المشرعة .. أبحث .. أصرخ :

ـ يا رأسي ... أين أنت ؟؟

أكرر الصراخ .. ثم الهمس .. ثم الصراح . ثم ..

يأتى صوته دافئًا :

ـ أنا هنا ..

وأراه ... بين أحضان الأرض الرطبة تمرح السعادة على وجهه .. وتتحدر ابتسامات .. تتوهيج شبابيك عينيه المفتوحتين على عرس الحياة اللهائم .

أدنو منه يبتسم ...

أمدكفين مشتاقين .. فيستسلم لطراوتهها .. أمسح عليه بحتان .. فيتذكر أن له قاعدة تنتظر أن يجلس فوقها .. ويستقر .. أوسّع فتحة عنقى .. أحمله .. أدسّهُ في الفتحة .. يفرح .. أفرح .. يضحك .. أضحك أحسه يلتم بالجسد بحرارة لنظرة الأولى بين الأم .. والوليد المنتظر .

يسأل بصوت عنب:

- _ إلى أين ؟؟
 - _ شنعود .
- ــ يحتج صوته :

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- _ إلى ذلك الكهف العاهر!
 - أطبطب عليه مطمئتة :
- ــ يار إلى توأمك المقصول المنتظر هناك.

* * *

أعدو .. ورائحة المدينة المرهقة معى .. أحملها أريدها أن تبقى .. أخشى أن تتسلخ عن لحمى وجلاى متصورة أننى سأرفضها .. أو سأخجل منها حين أصل إلى ذلك المكان المعبق يأرقى أنواع العطور . أحضن أطرانى .. أخبى الرائحة ف جلادى .. أتتشقها لتبقى داخل صدرى .. تفوح فيه .. وتشعر بالأمان .

* * *

لم يشعر يدخولى أحد .. كأننى ماغادرت ورأسى إلى مكان ما كأننى لا أحمل رائحة تشق بعرقها أنوف الجدران .. وخلايا اللحم المشوى .. كل شيء كما هو ... الطاولات المقروشة باللّأكولات التي لوكانت هناك في تلك الأزقة لما يقيت لحظة واحدة . أدنو من الطاولة التي يجلس عليها رأسي ... كان غاضبًا . ما أن جلس حتى عاتب توأمه :

- _ لقد تأخرت ..
- _ كانت رحلة للنيانة.
 - _ أنا جت ..
- _ وأنا لست جائعًا ؟؟

.. هل أكلت في الخارج ؟؟

- ـ لا يوجد لحم هناك ...
- _ لكن اللحم هنا كثير..
- _ سلخ الأجساد التي تكدح تحت الشمس.

الجرسون يقترب بأدبه المصطنع . يضع طبق « الستيك » المشوى أمامى . . أسمر كأجساد الرجال الحالمين بطعمه . . أمسك بالشوكة . . والسكين . . أضعها فوق قطعة اللحم . . أهُمُّ بذبحها . أدوس عليها . . أصيبُ أحَدَ عروقها . . يَتْفُرُ اللهُ . . أَحْمَر . . أتقرر معدتى . . . ارتعش كلى . . . تثور معدتى . . . أحس بأننى أمام لحم آدمى

张 称 转

المحـــتوكياست

فتحية تختار موتها ٥	0
ويبقى الصوت حيا	۲١
ينفصل الوطن تنفصل الطريق	٤١
على سفر	٥١
الكبسة	٥٩
الشمس وضحاها	۷۱
المدينة الحلم ٥٠	۸٥
لا يصلح للحب ا	١٠١
دقات المطر دقات	114
الصرخة في فم الثعبان ٢٧	177
زهرة تدخل الحيي ٥٠	٥٣١
وحده الظل يبقى وحده الطل يبقى	101
رأسان وجسد ٦٧	۱٦٧



verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رقم الإيداع ٥٢٩٣ / ٨٥ الترقيم الدولي ٦- ٥٤٠ - ١٤٨ - ٧٧٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مطابع الشروقـــ

المُساهِسَرَةِ ١٠ استِع سواد شسير . هائف ٧٧٤٧٨ . ٧٤٤١ . برليها المسروف . المنصل MAGROK SOIS LIS المنظمة عالم المسروف ١٠ من ١٠ ١ منت المعادم . ١٩٧١م . ١٩٧١م . برليا داشريق - المنصل A 1 دارم المنظمة A 1 والمنظمة المنظمة



